fb/mashro3pdf

العهد القديم

(آخر 48 ساعة في حياة المدهش)

رواية

أحمد كامل

fb/mashro3pdf

كامل، أحمد
العهد القديم / أحمد كامل
روافد للنشر والتوزيع. 2016 ط أولى، القاهرة
104 ص ؛ 21 سم
1-رواية
2-العنوان
أ – المؤلف
رقم التصنيف: 813.008
رقم الإيداع: 26645 /2016
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -284 -8
جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com
تصميم الغلاف: غادة خليفة

fb/mashro3pdf

إهداء واجب..

إلى الإناث؛

فاطمة الأم، نظيمة الجدة، يارا الحراسة، كاميليا الصَّاحبة والونس، ماريًّا وكارمن نور العينين.

إلى الذكور؛

الخال أحمد، الأخ عمرو، الصحبة: محمد عزت، عمر الروبي، عبد الرحمن بيومي، أحمد الفخراني، أحمد محجوب، ومحمد سباق.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ويحضِرُها للنَّفْس وَهمي تصوُّرًا

فيحسبُها، في الحِسِّ، فَهمي، نديمتي

(ابن الفارض)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

من جديد، أقف كعاشقٍ؛ متورم القدمين، ومُبتلٍّ بوردة حمراء، تقبع بين السبابة والإبهام، أرفعها نحو وجهي وأتطلع. وبين لحظة وأخرى، ألتقط عبيرها الذائب. تويج من سبع بتلّات متعرقة وتامة الاستدارة، أنصاف كرات متوالية، ميسم عريض يحتل الوردة ولا أثر لطلع؛ وردة للعين، من متاع فقط، بعيدة عن الإنهاك، دون تنافس أو سلطة ذكرية، دون احتمالات تناسل. وردة تشي بختام محسوب للحياة، مخضبة عند الكأس؛ حائض، عليها طلاسم منمنمة تقول: "اقرأ"، ولكني أفض فحواها باللمس: **ذكريات متقطعة، مرتبكة، منحوتة من صراخ.** كان العالم يقبع في الوردة. كنتُ ذاهلًا في الحكايات المنطلقة، أتشمم، وألمس، إلى أن باغتني النمل في كفّي. رحتُ أتتبعه، كان ينبع من نقطة في أعلى كتفي الأيسر، ينفجر من شريان ما، يتدفّق كتيّار مندفع، يسير في خطٍّ أسود ومائلٍ، مليء بالحياة، واضح فوق القميص الأبيض وحتى بنطالي، يزحف فوق الصدر، يُشكِّل الدوائر فوق موضع القلب، ومن البطن يمضي نحو ذكري، ومن ذكري يعود إلى الإبط والذراع وإلى اليد، يتشعب ويلتف حول الأصابع. نسيج من النمل، شبكة صيد تنغلق على الوردة. أزحتُ الخط المتدفق بيدي الحرة، لكن شرايين النمل واصلت الخروج من ينابيع مختلفة فوق كتفي وعنقي، سَرَتْ في خطوط عدة، أحاطت القميص بسياج ينتهي عند العانة، تركتُه لِمَا أوكل له.

fb/mashro3pdf

وأكملتُ النظر إلى الوردة وما خلفها من سماء حارقة ممتلئة بالأحجار المستعدة.

خلفي كانت تتفتح الشقوق عن جهنم، وتضرب المواعيد للفزع. وأنا عاشقٌ في تمامه. كانت الأرض تجف: المياه تُمتصُّ بقوة لا مرئية من الأنهار والبحار والترع، تندفع إلى رحم الغيوم. رأيتُ الطوفان معكوسًا، والفُلكَ ينخلعُ إلى شجر ضخم. رأيتُ الشجر يصير نبتات تغوص في الأرض، والناس يجمعون البذور، ويسيرون بالظهور إلى البيوت. رأيتُ الليل، ثم المغرب يعقبه الضوء، والفجر بداية ليل. رأيتُ الخَلق يتكالبون أمام الفروج، ينسحب الواحد إلى داخل الأنثى، يُمتصُّ من رأسه إلى أصابع قدميه. رأيتُ بطونًا حُبلى تخبو، والأيُور تقف أمام العانات، تَمتصُ سائلها من المهابل. رأيتُ خيوطًا طويلةً من المني تخدش السماء، وخيوطًا تحفر في الأرض وتلتصق بالهياكل. رأيتُ الرَّجُل يتنقل بين إناث عدة ليسحب منيَّهُ، وأُنثى ترتبك أمام عدد من الرجال. رأيت الذُّوِيَّ يتسارع: الشيخ يصير امرأةً، المرأة تصير خيطَ مَنِيٍّ مسحوب، والمنيُّ يصير غذاءً يندس في الأرض. رأيت الأرض تندمل على الزرع، تبصق بذورًا ودمًا يلتصق برأس القتيل: فينهض وتلقفه المهابل. رأيتُ أجنحة عملاقة تَنتزع من الرؤوس أحجارًا ملتهبة، وتطير بها إلى السماء. رأيتُ صراخ ألم هارب في الهواء يلج إلى الأفواه، فتنغلق. رأيتُ طرداء يعودون، ينبشون بالأصابع في صدور الطاردين، ويدسُّون بالأيدي كلمات

fb/mashro3pdf

التغريب في القلوب ويخيطون فوقها. رأيت شيخًا يردم بئرًا، ويحمل الزوجة والابن فوق أكتافه خلال صحراء قاحلة، يحشر كلمات غيرةٍ في فم الزوجة الأُخرى، ويُسلِّم صحفًا لملاكٍ. رأيتُ ابنة ملكٍ تترك رضيعًا على النهر، ملفوفًا بالبردي. رأيتُ الحيَّة تصير شجرة، والدم ماءً. رأيتُ القذائف ترجع إلى المدافع، المدافع تنصهر لفؤوس، والجنود ينصرفون. رأيتُ نمورًا تتقيّأ غزلانًا، ونحلًا يمتصُّ العسل ويتبرز الزهور. رأيتُ رذاذ اللعاب عالقًا في الهواء، يرتدُّ إلى ألسنة المنافقين والكذابين. رأيت الشرَّ يصير رغبةً، والرغبة تنحبس في العيون، ونظرات الكراهية تنسحب لتتحوَّل إلى رماد يتجمَّع من الفجاج والشقوق على هيئة كتلةٍ سوداء تطير إلى أعلى. رأيتُ السَّماء تصهل والغيوم ممزقة بين أعنة من أشعة الشمس وجَلدات الهواء، غيوم تعافر، مُستفَزة بسوط الهواء القاطع، ومتقطعة الأنفاس بين حبال الشمس.

بالملمس أعرف ما لم أعرف. أشرتُ على الغيمة بطرف الوردة، فانقطع العنان، رَكَضَت الغيمة، وَدَهَسَتْ وجه الشمس، أكملتُ الفكَّ: انطلقتْ غيمةٌ وراء غيمةٍ لتطأ على السائس. كان جلد السماء يتفتق: فتخرُّ ماءً يُزبد من الغيم، ماء يلتقي من الأعلى والأسفل بلا حاجزٍ، مضتْ حوافر مِن ماء على الصهد، امتلأ السائس بالجروح، كان يوزِّع الدم على السَّماء، يسقط في الأرض ويرحل: كانت الظلمة. من البعيد

fb/mashro3pdf

سمعتُ خفق الأجنحة، لطمات صاخبة في الأفق، بدا يحجلُ بين الحجارة، يُمزّق الغيم بجناحين عملاقين. حلّق فوق رأسي نهد طائرٍ، يحمله على الهواء جناحان مِن ألوان صاخبة، كانت أجنحة طاووس عملاقة، مزيج مِن الأحمر والأزرق مشوب بصفرة، والحلمة بازغة في وسط النهد، تنقنق كمنقار. نهدٌ أبيض كالحليب ومدوّرٌ، تامٌّ. دورة واثنتان. اقترب، ثم هبط بشكل مفاجئ نحو يدي والوردة، كان يلاطف الكف، يحتك بها ويتقلب، يتحنَّن، يُحاول الدخول، يتذلَّل، يومضُ بالغواية للخروج من الوردة. ثلاثة أصابع لم تُمانع المداعبة، بينما احتفظ الإبهام والسبابة بالوردة، توقف عن محاولات الفك، تغيَّر مزاجُهُ. بالحلمة أراد نقر الوردة، فأشرتُ عليه بعصا الطاعة تجاهها، كنتُ أشير إليه بالسجود للوردة، بُهتَ، بدا غاضبًا، يائسًا، فتح الحلمة فبانت عن أسنانه مسامير بيضاء، عضَّ اليد بغيظٍ، التفتُ إليه، وأحطتُ الحلمة بيدي الحرة، أطبقتُها فوق الأسنان، كنتُ أزوم وأُطبق بالقوة اللازمة، والأسنان تطقطق في تتابعٍ، رفَّ ومزَّق رأسي بضربة جناح، أفلته؛ كان دائخًا، يرتفع ويهبط، هزّ الحلمة، وبصق، نثر الأسنان والدم، وحلَّق بعيدًا، تعثَّر بين الغيوم، فجأةً هوى، كان نقطةً بلا إرادةٍ، يُشكِّل قوسًا يمسح الأفق أثناء النزول. رأيته ورأيتُ الدم يسيل فوق كفي، رأيتُ ساقي على الجبل، بيدي كنتُ أكتم صراخًا، ألهثُ، أقفز، وأهبط بثقلي، أركلُ بغلٍّ،

fb/mashro3pdf

أدهس، أشق الجبل بقدمي، أُوجع المكامن للخروج، والجبل تحتي يتقلَّب، يلفظ رمالًا في عيني وفمي، رمالًا حمراء حشرتْ لساني وأعمتني، كنتُ أُجاهد لإبقاء قدمي على الجبل، فمي مملوءٌ ولا رؤية، ولكن روحي متشبثة بمنحدراته، بأمل الخلاص، كفاح، وكفاح مضاد، كنتُ أدقُّ بثقلي كالمحموم في حضرةٍ، كاد يُخالطني اليأس: سألتُ أن يساعد، يدك الجبل بجلوةٍ، بعلامةٍ، ولو لمرةٍ واحدةٍ في العمر. أبي كان الشيخ "محمد المُدهش" حافظ الكِتاب، وأمي تدلَّى مِن لسانها الذِّكْرُ حتَّى تعثَّرَتْ به الجارات، قفزتُ بالقوة الأخيرة، بالحياة أو الموت؛ سكن الجبل، انشق، توقَّف أخيرًا، كان مُستسلمًا، فَجْوَتُهُ تلفظ نارًا حميمًا، أمسكتها بيقين البركة، علَّقتها أمامي في الفراغ، اصطف الأحباب أمامي واحدًا تلو الأخر: أبي، أمي، وأنيسة. كان الرضا، وزغرودة طويلة ومجلجلة، والسماء تصفِّق بسحابتين عملاقتين يولد منهما البرق، أزرقَ وساطعًا، امتدَّ من السماء إلى صدري، نبش الضلوع؛ فوقعتْ منها الوردة بين يدي. كنت مُنهكًا، نزلتُ عن الجبل الخامد، أخيرًا، وقفتُ أتمعَّن في صنع يدي، أحكُّ ذقني بالوردة وأتطلَّع للبعيد، أتجاهلُ اختلاسات النظر، بنرجسية مُحِبٍ، مرتفع، أنتظر الوردة بالوردة، ويدي تربت على الهواء من حولي، أتجاهل ما لا أنساه: عندي تعوي ذئبة أزلية مقدورة، لكن روحي مسمومة باللحظة, بالفخاخ المنصوبة؛ كأملٍ لا يذوي، يزكم الأنف

fb/mashro3pdf

برائحة نفاذة كتلك الوردة. أتأكد من لمعة الحذاء، ومن تصفيف شَعري، وهندمة ملابسي في الواجهات الزجاجية، أتحسَّس ذقني الناعمة، أستهلكُ الوقت: آخذ خطوات بسيطة للأمام. أدور وأرجع موصولًا بخفة عاشقٍ. أتمرَّن: أُعِدُّ ساقي لفتحات وشقوق مفاجئة، أتخذ خطوات كفرس الشطرنج فوق بلاطات الرصيف. لا أهتم بنظراتٍ لا ترى إلَّا خطوات واسعة، نظرات لا تقرأ قفزات الحصان الخفيف.

بلاطة، اثنتان، والثالثة إلى اليسار. بلاطة، اثنتان، والثالثة إلى اليمين...

كانت ساقايَ تتقافزان، ترسمان علامات استفهام فوق بلاطات الرصيف، بينما جسدي يتأرجح في محاولات تجنُّب الاصطدام بالمارة أمام محلات وسط البلد، حتَّى بانت تلك البقعة أمامي بين الجدار والأرض: توقَّفَتْ قدمي، تعلَّقَتْ في الهواء لبُرهةٍ، وانقطعتْ عنها البهجة بالمفاجأة، بينما اشتدَّ سعار عيني في الجهات ولا شيء، عرفتُ أنها عفاف، هنا، وحولي، تنظر، وتحاصر، تسد موضع الرسائل باتجاه العزلة. كانت البقعة تُشبه البقع التي عادت للظهور على الأرض والجدران في غرفتي. بقعٌ تكثر في الأركان، متجمدة، وتزول بصعوبة، بارزة: تمنع تمام الملاصقة بالجدران والأرض، نفس البقع التي ظهرتْ بعد وفاة أنيسة، واختفت لفترةٍ بعد زواجي مِن عفاف. حفزت الرؤية ذاكرة أنفي؛ فضربتني البقعة برائحةٍ

fb/mashro3pdf

كريهةٍ، بينما أقف أمام محل الملابس الذي تعمل به سلوى. سلوى العصفورة التي تُنفق النهار والصحَّة في مجاملة نساءٍ كالفيلة، بوجوهٍ كشوارعٍ مُتكسِّرةٍ. كنتُ أُفتِّش بعيني في وجوه المارة ونوافذ البنايات، حين ظهرتْ سلوى أمام الباب، مبتسمة، وتهرب من المحل بخطواتٍ سريعةٍ، كظبيةٍ أمام صيَّادٍ، تلتفتُ إلى زميلات العمل المُطلَّات خلف الواجهة الزجاجية، تُخرجُ لسانها، وتضحك، فيتبادلنَ معها الضحك وإشارات الغيظ والتوعُّد بتمرير حافَّة الكف المفرود على الرقبة. كنتُ ألهثُ مِن أثر القفز والتوتُّر، ولكني ضحكتُ مثل طفلٍ يرى أمًّا غائبةً، بينما بدت سلوى مبتهجةً بإذنِ الانصراف المبكِّر مِن صاحبة العمل؛ لمرافقة أُمِّها في موعد الزيارة الشهرية لطبيب القلب.

قلتُ: «الزَّهرة تنبتُ في حضن الجبل، والسَّعادة تخرج مِن أنياب المرض». كنتُ أصحبهما دومًا أثناء الزيارة، لا أُفارق البنت حينما تخرج مِن البيت، لكن وعلى خلاف العادة لن أذهب معهما اليوم، فحياتي مُتوقِّفة على كرم أبو عبده. خرجنا من شارع عبد الخالق ثروت إلى شارع رمسيس؛ فانكشفتْ شمس أغسطس، حارقة فوق رأسي، والصهد الطالع مِن الأسفلت يزيدُ المعاناة، بينما تجنُّب الباعة والمارة كالرقص على حبل. كانت سلوى تُعاند؛ تنزل عن الرصيف للبحث عن مساحاتٍ

fb/mashro3pdf

خاليةٍ، بينما ظلَّتْ قدمي تُنقِّب عن فراغاتٍ للسير فوق الرصيف.

كانوا قد أوصوني بالحذر في تلك الفترة، بتجنُّب مجال السيَّارات. أوصوني بالسير وسط الحشود وعدم السير منفردًا، بالابتعاد عن الطعام والشراب المرتبين، بالتفنُّن في التقاطهما على فجأةٍ لإرباك المراقب، وتفحصهما قبل التُّناول، بالتُّناول على مهلٍ، بالانتباه لما يسقطُ مِن السماء على رأسي، بالوعي لموطئ القَدَم؛ تحسُّبًا لشقوقٍ أو لمسامير صدئةٍ أو مصارف مفتوحةٍ، بتفتيش موضع نومي بحثًا عن ثعابين وعقارب محتملةٍ، البعد عن المرتفعات، استخدام السلالم بحرصٍ، وليس المصاعد، تجنُّب الكهرباء وأسباب الحرائق، الحذر مِن الانزلاق أثناء دخول دورة المياه، لا للسباحة والسفر والسكِّين، الحرص مِن الكلاب والقطط المتناثرة، تجنُّب أسباب المرض والعدوى مِن رذاذ ودماء المخالطين. حذَّروني مِن عموم الحياة، ومِن طمأنينةٍ تنتهي لغفلةٍ، أوصوني بسرعة القرار، وببطء المسير، وبالعودة إلى المطار ومحطَّات السفر للاستقبال والوداع. قالوا: «اقتربت الدائرة، والنجاة خطوةٌ لإعادة التشكيل والجلوة». قالوا: «إذا وقعتَ؛ سنُعيدك لسيرتك الأُولى، ولكنه ليس الزمان، بل المجهود سدًى». قالوا: «رسائلنا ورسائلك على الجدران والأرض، ولكن لا يَفضُّها سوانا». قالوا: «يا أبانا الشجرة، يداك الأغصان، وقدماك الجذع. فمسَّ، ودُبّ».

fb/mashro3pdf

كنتُ أُقلِّبُ عيني بين الحذر والأمل، أبحث عن إرشاداتٍ ورسائل جديدةٍ تُساعد، بينما أزاح الزَّحام والظهيرة مزاجَ العاشق. أحد المارة يتذكَّر حصْرَتَهُ. أعرف تلك الرَّغبة مِن هروب العينين والخطوات السريعة المرتبكة نحو الجدار، وإخلائه لليدين بحصر الحمولة بين الساعد والصدر أو تعليق الكيس في الرسغ، لا ينظر إلى عينٍ بينما يُدير ظهره للعالَم، لديه أزمةُ ثقةٍ كبيرةٍ يُريدُ أن يتخلَّص منها قبل مواجهة العالَم مِن جديدٍ، بأصابع متوتِّرةٍ يسحبُ ألسوسته. يتناول ذكره بيده، ويتفنَّن للسيطرة عليه دون إظهاره، ودون أن يُغرق ملابسه. يستند بكفِّهِ الأُخرى على الجدار، مفرودة ومتصلِّبة كأنها تحفر، ورأسه تميلُ إلى الأسفل. يبول على الحائط: فيتناثر الرذاذ فوق البنطال، بينما ينساب الماء مُخفِّفًا مِن حرارة الرصيف، والمارة يتقافزون حول الماء وفوقه، ينظرون إلى الظهر بقرفٍ واستهجانٍ، بينما الأصابع ترتخي على الجدار: تُوحي لِمَن يراها براحة بعد الحصرة.

قلتُ: «أُغار عليكم، يا ملوك، حين تُطعمون غيري، وأنا ناظرٌ». كنتُ أحفظُ تلك الخدعة، طريقة مِن الطرق لاستقبال رسالةٍ عاجلةٍ في وسط الحشود دون إثارة شكٍّ. كأنْ تتكئ على الجدار: لتعدل رباط الحذاء، أو أن تتصرَّف كمصابٍ بأزمةٍ صحيةٍ يستند لالتقاط النَّفَس. كان الرَّجُل يقرأ ويكتب باللمس، يتبَّول في الزحام: لينصت للملوك بأصابع تتصلَّب

fb/mashro3pdf

وترتخي. لو كان سيئ الحظ، سيتعدى الأمر نظرات الاستهجان، فيأتيه مَن يُغيِّر المنكر بلسانِهِ ويسبُّ سُلالةَ أُمِّهِ، أو مَن يُغيِّرُهُ بيديه؛ فيضرب الرَّجُل على قفاه ويركض. ولمواجهة تلك الاعتراضات أثناء التلقِّي والإرسال، تعوَّدتُ التحكُّم في ذَكَرِي بالسبَّابة والإبهام أثناء استخدام غطاء التبوُّل، بينما تمسك بقية الأصابع بحجرٍ ثقيلٍ، وعند الحاجة أستديرُ بصدري فقط، جذعي يظلُّ للداخل، وكفِّي الأُخرى تظلُّ مفرودةً على الجدار فلا تفلُّت إشارة. أُسدِّد الحجر في رأس الهارب الذي دكَّ قفاي أو مسَّ مؤخرتي. أمَّا السباب؛ فأمره للتجاهل. أغلق الرجل بنطالَهُ، أنهى مهمته، واستدار، يمضي بعينٍ هاربةٍ وخطواتٍ مرتبكةٍ قليلةٍ قبل أن يرفع عينيه، ويُواجه العالَم مِن جديدٍ.

تذكَّرتُ الحارة الضيقة في "حدائق القبة"، حيث بيت أبي وأمي رحمة الله عليهما، أحبُّ الحارات الضيقة، البيوت الملتحمة بلا فراق، تمسك الشمس عن رأسي، وتسمح للجيران بمعرفة أدق تفاصيل الجيران، الحيطان مستأنسةٌ وحميمةٌ بما لم تشاهِد. جدران الشوارع الواسعة توحَّشَتْ بالمعرفة، رأتْ دمًا وصراعًا وأذًى ومرًّا؛ فأُنهِكتْ بما رأتْ. حيطان الحارة تنشع بعرق الجار، والشقوق ارتباك الجدران بالحنان، في الظهيرة تخلو الحارة مِن المارة، وتمتلئ بروائح الأطعمة والبصل والثوم، لا أحد يُفسد الحارة ببوله: فالجدران أقرب للكفِّ مِن

fb/mashro3pdf

الجسد، والغرباء قليلون، وفضلات الواحد مُعلَّقةٌ عليه، وليست مجهولة النسب، ليستْ كما تفعل الشوارع الواسعة. أُحبُّ الحارات، وحبال الغسيل التي تقف كالمصفاة في طريق الصهد، ورائحة الغسيل المضروب بالنيلة، ولطف مياه الغسيل التي تُلقيها النسوة في وسط الحارة، العيال التي تهرول بالدبابير الورقية لترتطم برأسي، نافوخي هلك يا شمس، والحذاء ذاب مشيًا يا مسافة.

«لن أرجع للبيت مَرَّةً أُخرى» قلتُ لسلوى، وَاصَلَتْ المَشْي، لم ترد.

بالأمس كان الهواء ينبعثُ خفيفًا في الغرفة. صحوتُ، والكائن الغريب ينيك عفاف أمام عيني، يروح ويجيء لينبعث ذلك التيَّار الخفيف، بين الرُّعب والفضول تطلَّعْتُ مِن تحت الغطاء، كان مخيفًا وأحمر تمامًا، يسبح في الغُرفة فوق جسد عفاف النائم جواري، مُعلَّقٌ في اللاشيء، إيره يتجاوز المتر طولًا، ويتهادى حتَّى فَرْج عفاف، التي زادتْ تأوُّهاتُها مع كل حركةٍ.

دخلتْ سلوى إلى محطة جمال عبد الناصر، أسيرُ إلى جانبها، وأرى جدران المحطَّة تنطبقُ علينا وعلى الركاب، الأعمدة تتهاوى وتسحبُ السَّقف على الرؤوس، الحجارة مغروسةٌ في اللَّحم، والدَّم يُلوِّث الأجساد، أرى النَّهايات، وأستعدُّ. علَّمَتْني ضربات عفاف أن أستعد، ورسائلهم كانت

fb/mashro3pdf

وقودًا للحذر. قالوا: «لنا الأرض والجدار.. نمنع عنك تمام الأذى، ولا نحبس عنك الابتلاء. تلك سُنَّةٌ فيمن نُحِبُّ، وتصاريف لضبط الحياة». ولكني دومًا أُفكِّرُ، لا أُفرِّقُ بين ما لكم عليه مِن بأسٍ وما خارج يدكم، ليس عن قلة ثقةٍ يا ملوك المسافات والوقت، ولكنها العادة والخيال الممزوجان بالخوف مِن نسيانكم لأمري الضئيل، أو من ضربات عفاف المفاجِئة. أدمنتُ الخوف والبحث عن أقرب المخارج للأزمة وشيكة الحدوث؛ في مَرَّةٍ رأيتُ المترو يطير مِن القضبان، العربة الأُولى تنقلب على جانبها وتزحف فوق الرصيف، تسحب باقي العربات، تمسح الجدران والمنتظرين: هرولة، جُثَثٌ مهولةٌ، صراخٌ وألمٌ ودمٌ، كان خيالي يحسب ما سيأتي بدقَّةٍ، يقفز في تلك اللحظة على القضبان بدلًا مِن المترو، يراجع زواية ميل العربات والفراغ بين العربات والرصيف، الفراغ الذي لن يطأه القطار، أُطمئنُ قلبي بالعثور على الفراغ، عن ثقبٍ للحياة في العالم. في الزِّحام أرفع عيني: أتأكَّدُ مِن خلوّ السَّماء مِن الحجارة والطائرات المحتملة السقوط، ومِن ابتعاد موضع رأسي عن لوحاتٍ أو أُصصٍ آيلةٍ للسقوط، حركة غير محسوبةٍ، أو طفل في شرفةٍ: كفيلٌ بإنهائي. أمَّا في آخر الليل، وحيث الممرَّات خاوية، كنتُ أتحسَّبُ للهجوم مِن أسدٍ أو قاطعِ طريقٍ أو لشقوقٍ تنفتح لتبتلع، كنتُ أدرسُ تفاصيل المكان، وأقرب نقطة يُمكن الهرب إليها مِن الخطر القادم، أُجهّز ساقي

fb/mashro3pdf

بتمرينات قفزٍ وعبورٍ. في البداية استرحتُ لخُطَّة الأماكن العالية، وتدرَّبتُ عليها. أطمئنُ بوجود سورٍ مرتفعٍ، أستطيع الركض نحوه وضرب قدمي في حجارته حتى تتناول يدي الحافة وأتسلقه، لم تعد الفكرة مجديةً بعدما رأيتُ لبؤةً تقفز لمسافة مترين لتعتلي الجدار في برنامج تلفزيوني، لازمني القلق، لم أعد أسير في أماكن خاوية، صرتُ أفتِّش نهارًا وأنا مختبئٌ في الزحام عن الأبواب والنوافذ القريبة التي يُمكن الاحتماء بها وقت الحاجة، أتفحَّصُها وأتأكَّد مِن بدائل في الممرَّات، أختبر قُدرة مُفصَّلات الباب على العمل لغلقه سريعًا في وجه الأسد أو المهاجم، أُعاين المزاليج وسُرعة يدي عليها وسهولة التحرُّك تجاهها قبل أن تمتدَّ قدمي بحذرٍ للسير في تلك الممرَّات بمفردي ليلًا. كنتُ أضع للسير خططًا وخططًا بديلةً لإرباك المُراقب، وللنجاة من فخاخ الحياة. أحتفظ بها في المنزل داخل صندوق خشبي مع مئات الصور القديمة، كان صندوق المعلومات سندي، أُراجع خط السير والبدائل قبل النزول من المنزل، لكن الشَّيطانة عرفتْ: أحرقت الصندوق والأوراق أثناء نومي، الشيطانة تُجرِّدني مِن الاستعداد في سبيل لحظة قطع الرقبة.

وقفتُ مع سلوى في طابور التذاكر، الزحام شديد، والخلق في هياجٍ، والموظف يُسلِّم التذاكر مِن فتحةٍ تُشبه كُس عفاف، كان المُوظَّفُ محبوسًا داخل الكُس، يده تمتد بالتَّذاكر، يُوزِّع المشاوير على الخلق، الناس يتكالبون على المشاوير التي تأتيهم

fb/mashro3pdf

مِن الكُس، يدفعون وقتهم وأعمارهم أملًا في رضاه، والكُس يُجنِّد العديد مِن المُوظفين ليعملوا له ما يشاء، الهياج والتكالب مصدرهما الفتحة، ما أن تجد طابورًا في آخره فتحةٌ، إلَّا ويزيد الصراع وهيجان الناس. قلتُ لسلوى إنَّ الفتحة هي أساس كل شيءٍ، الفتحة تعني الحياة: فتحة الأنف والفم والعينين، فتحة الشرج والمهبل، كل الفتحات تُؤدِّي إلى الحياة، فيما عدا الفتحة الأخيرة: فتحة القبر. فتحة واسعة تستقبل بَنِي آدم في النهاية، فتحة كبيرة تنغلق فوق كل الفتحات، الكروموزومات تُحدِّد عدد الفتحات في الإنسان، يمكن للإنسان أن يحمل الكروموزوم **واي** أو لا يحمله، بينما لا يُمكن أن تكون هناك حياة دون الكروموزوم **إكس**. منذ أعوام؛ قلتُ لمحمد صابر أثناء مشاهدة فيلم سكس في (قهوة سعادة): إن الكروموزوم **إكس** يعني فتحة، الأنثى تحمل اثنين مِن **الإكس**: لذا تملك الأنثى فتحتين، الذكر يحمل كروموزوم **إكس** وآخر **واي**: الذكر بفتحة واحدة، الأنثى لها حياةٌ كاملةٌ، وللذكر نصف حياةٍ يا بتوع حقوق المرأة. الذكر نصف حي ونصف ميت، وجود **الواي** فقط يُؤدِّي لمولود ميِّتٍ، يُمكن أن تحمل بعض الإناث ثلاثة كروموزومات من نوع **إكس** فتصبح سوبر حياة، أو يحمل الذكر اثنين من **الإكس** وواحد واي؛ فيعذبه الواي بصراع هوية طوال الحياة، العذاب في **الواي**، أظنُّ ملاك الموت هو عددٌ لا نهائي مِن الكروموزوم واي، ملاك الموت

fb/mashro3pdf

يخبط الأجسام بكروموزومات **الواي** حتَّى الموت. أداوت القتل منحوتةٌ في قالب من حرف **الواي**: منذ البلطة وحتى قنبلة هيروشيما التي حملت ملايين **الواي** المنثورة. وخلَّفتْ سحابة ضخمة من حرف **الواي (Y)**. سحابة تُشبه حيوانًا منويًّا. كبيرًا وسالبًا للحياة. **الواي** تعني الموت. والفتحة تعني حياة.

كنا ننتظر المترو فوق الرصيف لنقطع اثنتي عشرة محطة إلى عين شمس. ننزل في الجهة الشرقية من محطة المترو. ثم نركب ميكروباص يعبر شريط السكة الحديد باتجاه شارع أحمد عصمت؛ حيث تسكن سلوى التي تدور في ساقية لا ترحم. يمنحنا الميكروباص وقتًا لتلامس الأجساد. يحتكُّ جسدي بسلوى. ولا أُبالي برسائل الجدران الضائعة. عند المزلقان تتكدَّس السيارات في فوضى عارمة تستمرُّ لما بعد رحيل قطار السويس. ويستمر الونس في جسمي. أُحبُّ سلوى. ولكني أحببتُها أكثر حينما كانت السيارات مكدسةً أمام السلاسل الحديد في انتظار عبور القطار. كان القطار يمر ويعوي أمامنا. وأحدهم يجري عريانًا فوق القضبان متتبعًا القطار العاوي. ويلوّح بإشارات الوداع بكفيه. كان الرَّجُل نحيفًا للغاية. يُمكنني أن أعدُّ أضلاعه البارزة. وعظام ساقيه ظاهرة مِن أسفل الجلد. شَعر رأسه وذقنه طويلان. وشَعر العانة يُداري عورته. على قدميه طبقةٌ من الطين الممزوجة بالدم. يركض ويلوّح والركاب يضحكون. يصرخ بحروفٍ مبعثرةٍ

fb/mashro3pdf

على القطار، والعيال خلفه يقذفونه بالحجارة، والسائرون يضحكون، تمتد أيدٍ قريبةٌ لتلطمه على مؤخرته؛ فيلتفت برأسه مذعورًا، تفلتُ دمعةٌ، ويكمل مع القطار. لكن سلوى أغمضت عينيها، وبان ألمٌ وحزنٌ، كنتُ أودُّ لو أحطتها بذراعي، وأن أُجرد الركاب والسائرين من ملابسهم، أدخلهم في فرن غياب الأحبة كهذا العاري من الصهد، وأنا أصرخ: «أحبُّكِ يا سلوى». في محطة المترو، يظل ظهري مطمئنًا بالجدار إلى أن يقف المترو تمامًا، لا أقترب مِن حافة الرصيف إلَّا بعد أن آمِن لتوقُّف الغول الحديدي السريع، مِن الجدار سَرَت الرسالة إلي جسدي، كان تحذير الملوك واضحًا: «لا تسقطْ في خاتمة العزلة». لم أفهم تمامًا المعنى، ولكن توقَّعتُ فقَّاعةً جديدةً، بكفٍّ مفرود لامستُ الجدار، بالحنو ربَّتُّ عليه؛ كنتُ أبثُّ لهم طمأنينةً وأُطمئنُ نفسي، طبعتُ قبلةً علي يدي، ومسحتُ على الجدار وقلتُ: «بعلم الوصول للبعيدة». وصل المترو إلى الرصيف، ركبتْ سلوى في عربة السيدات كعادتها، توجهتُ إلى الأبواب، وركبتُ في العربة التالية، بالحذر أتعامل مع الصعود إلى المترو، عينٌ على الباب، وعينٌ على سلوى، التي ابتسمتْ لتخفِّف مِن قلقي، كنتُ أنتظر التهام الأبواب لذراعها قبل الدخول إلى العربة، أرى الحياة تدبُّ في الأبواب برغبة عفاف، تتأكد من إحكام الفكين حول الساعد، تتحكَّم في الجسد مِن الغصن، يسحبها المترو المنطلق على الرصيف، بالهلع تصرخ،

fb/mashro3pdf

تتنصل مِن ذراعها، وقدماها تحاولان مسايرة الجسد المتسارع حتَّى لحظة العجز، تفقد التوازن، تصبح لعبة بين أنياب الموت، هلعٌ ينتقل للمحيط، تقع بين الرصيف والمترو، تتقطع تمامًا، الدم واللحم والحديد والحصى. كنتُ أستبق الدم بالرؤيا، أعدُّ الخطة مسبقًا، أجري، وأفتح الباب المعاند على الذراع قبل تحرُّك المترو، أحتضن سلوى، أدفع الباب بقدمي، وأُخلِّصها منه، نرتمي أرضًا على الرصيف. دومًا أتخيَّل ما بعد، أستعد كي أظلّ. لن أستسلم لعفاف مَرَّةً أُخرى، ولن أنسى ليالي الرعب: كنتُ محشورًا أسفل السيارة، أبكي وأصرخ، تبوَّلتُ في بنطالي حتَّى ساعدني الخلق.

كنتُ أسير وحدي في الليل، الشارع يخلو مِن المارة، وظهر كلب ضخم أسود، بالأنياب القاطعة ركض مِن أول الشارع نحوي، تشنَّجتُ لصوت خطواته ولهاثه، رأيتُ لحمي بين فكَّيه، ولا أحد. كان يهدر: «لماذا تأخرت؟! ماما عفاف تُرسل قرصة أُذنٍ». لم تحملني ساقي، ارتميتُ، انحشرتُ أسفل السيَّارة وأنا أعوي، أصرخ: «يا عفاف! لن أتاخر. اسحبي الأنياب بعيدًا عن لحمي». في مَرَّةٍ أُخرى، كان السائق يحاول السيطرة على العجلات المنفلتة، الناس تصرخ حولي، ولا أعلم. خلف الزجاج الأمامي للسيَّارة كان الفزع في العينين، وفي الذراعين الجهد، قفز السائق في اللحظة الأخيرة على الرصيف ووقعتُ أمامه، كانت العجلات تلامس وجهي عندما توقَّفَتْ فجأةً، بكيتُ وأنا

fb/mashro3pdf

نائمٌ على الأسفلت، والعجلات تضحك وتُغنِّي في أُذني: «لماذا لم تترك مصروف اليوم لعفاف؟!».

كما ترتجُّ الأجساد في عربة المترو، كانت عفاف ترتجُّ من اللذة، والسرير يهتز بأثر الزلزال، نائمة إلى جواري ورطوبة سائلها تزحف أسفل جسمي، تضغط الشفتين، وتزوم بآهاتٍ مكتومةٍ، تلعب في صدرها بيدٍ، وبالأُخرى تفرك الشفرات، والكائن يطير على ارتفاع مترٍ في الهواء، يحلق ويحوم، يروح ويجيء، (يكارك) كما قال أبو أحمد الجزَّار في قهوة سعادة، كنتُ أُريد الصراخ والهرب من الغرفة، لكنه الخوف الذي شلَّ جسدي أيضًا، ولم تسندني أقسى الخيالات بالاستعداد لموقفٍ كهذا؛ قلت لروحي: «لا طاقة لي بكِ يا عفاف، لا طاقة لي بكِ». دفنتُ وجهي تحت الغطاء، وتمتمتُ بالكُرسي ويس، يُضاجع زوجتي أمامي ولا أقدر أن ألفظ، أي ابتلاءٍ هذا يا ملوك! صعد الوخز مِن رِجلي إلى وجهي، كان وخزًا كآلاف الإبر، تمنَّيتُ أن تنتهي الليلة، أن يفرغ الكائن مِن زوجتي، أن أفقد الوعي، أو أن يبدأ صراخ سلمى الصغيرة؛ لكي يتوقَّف الرعب الجاثم، لكن القحبة لا تتحرَّك خطوةً دون تحضيرٍ، فقد أرسلت الصغيرة للمبيت لدى جدتها؛ لتنفرد بالمتعة الطائعة تحت شهادة الخائف. كانت عفاف تدخل في دوَّامةٍ من الرعشات المتوالية: ترتجُّ، تتشنَّجُ، والغرفة تدور، رعبٌ فوق رعبٍ، ناديتُ أبي وأمي

fb/mashro3pdf

وملوك الزمان، وقلتُ: «والله، لو أخرجتموني مِن البيت الظالم أهله، فلن أعود».

كنتُ أُريد أن أطمئنَّ على وصول سلوى إلى بيتها، أريد أن أظلَّ معها ولا أفارق؛ فعفاف تلعب الآن على المكشوف، وقد تُزيل سلوى في لحظة غفلةٍ، ولكن عليَّ الذهاب بعد ذلك لعم أبو عبده؛ فرُبَّما أجد طوق نجاةٍ، سأحكي للرَّجُل، أخبره عن الهول الذي لازمني لسنواتٍ، أفكُّ كلبشات الرجولة عن لساني وأقول، الرَّجُل لن يرفض طلبي للمبيت في دُكَّانه الصغير حتَّى تدبير الأمور، يُمكن أن أُعاونه في الدكَّان، هو ألمح لذلك، يُمكن أن أُنهي عقد الإيجار لبيت أبي، وأعود للحارة التي آنفتها بنت القحبة، وفرضتْ عليَّ الخروج منها قبل الزواج والسكن في إيجارٍ جديدٍ قُرب بيت العرة أبيها، سأنسى عفاف، أبدأ مِن جديد: يوسف المُدهش، كما كنتُ، بلا أي تعقيدات أو مواجع، تسقط مِن ذاكرتي تلك البُقعة الكبيرة، فقط أحتاج لوقتٍ بسيطٍ حتَّى يُدبِّر المستأجر بيتًا آخرًا، ويخرج، أو أدبر عملًا، أرجوك ياعم أبو عبده، لا تكلني إلى عفاف مَرَّةً أُخرى.

نزلنا إلى محطة عين شمس، والناس تتدافع باتجاه باب الخروج، قلتُ أنا أيضًا أريد بابًا للخروج مِن التيه، مِن سِحر القحبة الذي لفَّني، سِحرٌ فوقه سِحرٌ، وأنا مقيد عند أقدامها كما قالت ثناء عندما ذكرتُ لها مسألة الطيران: كنت أجلس على الأرض بعد صلاة الجمعة، وظهري مسنود إلى قوائم

fb/mashro3pdf

الكنبة البلدي في منزلي، وثناء تجلس فوق الكنبة تُثني ساقًا أسفل الأُخرى، وتُقشِّر البطاطس بالسكِّين، وعلى فخذها حلة مِن الألمونيوم، قاطعتُ صوت التلفزيون الموضوع فوق الطاولة المعدنية المضروبة بالصدأ أمامي، وهمستُ: «البنت بتطير يا أمه، رجليها بتطلع فوق الأرض»، ضحكتْ ثناء، وقالت: «وبتنزل في العش يا ابن الكلب!». لم أضحك، وجهي أصفرَّ، كنتُ على حافة البكاء، وثناء تعرفني: خافت ثناء، وسألتني أكثر، بكيتُ، وأنا أقول: «يا أمي، وقعتُ في برميل خرا، كل ما باقلِّب؛ أشم ريحة وسخة». رأيتُ عفاف في بيتهم فوق الأرض، تطير، كنتُ خارجًا من دورة المياه، وعفاف تضع الأكواب على الصينية لتقديم البارد، ظهرها لي، لم ترني، كانت تبدو أطول بكثير من المعتاد، نزلتْ عيني إلى الأرض، وقلتُ تقف فوق شيء، ولكني وجدت قدميها فوق الأرض بنصف المتر، معلقة في الهواء، القدمان مفرودتان والأصابع للأسفل، تجدِّف بالمشطين في الهواء وتتنقل، تحضر الأكواب من أعلى رفٍ، وتعود إلى الطاولة، لا تمسك الأكواب، بل تُشير، فتهتز الأكواب، وتُبارح مواضعها نحو الصينية، وقع كوبٌ طائرٌ على الأرض، وانكسر؛ فأشاحتْ عفاف نحوه بحركة سريعة من يدها، انصهر الكوب وتأوَّه، اهتزت باقي الأكواب في الصينية وتلاصقت ببعضها وهي تبكي، كانت تُنادي «سامحيه يا سيدة الحي والميت!»، احتبس صوتي يا ثناء ولم أتحرّكْ، ولكنها أحسَّتْ، رأيتُ بؤبؤ العين

fb/mashro3pdf

يترك محجره، تصعد العين إلى الجبهة، وتزحف حتَّى مُؤخِرة الرأس، كانت عين عفاف في مؤخرة رأسها، تبحلق وتتقافز، تطرق رأس عفاف التي هبطتْ مَرَّةً واحدةً إلى الأرض، بينما جرت العينان مِن مؤخرة الرأس إلى تجاويفهما وصمتت الأكواب، التفتتْ لي وابتسمتْ بهدوءٍ، سألتني إن كنتُ أُريدُ منشفةً، كدتُ أبول على روحي لولا فراغ المثانة، بسملتُ وظننتُ أني مسطول، ولكني لم أقربْ سيجارةً منذ شهر؛ لأنَّ التجهيز للزواج أكل فلوسي وصحَّتي، قضيتُ زيارتي في عالم أخر، لا أنطق ولا أسمع، وهي تنظر ولا تتكلَّم، خرجتُ مِن بيتهم في توهان، حافيًا دون حذاءٍ حتَّى أول شارعهم، ولم أشعرْ إلَّا وقطع زجاج تأكل لحمي، فرجعتُ لآخذ الحذاء والدم يتتبعني، بينما انحنتْ عفاف على قدمي لتنزع الزجاج، وتُداوي الجرح الذي اختفى دون أثرٍ بعد أن مسحت عليه بيدها. نفْس اليد التي كنتُ أمسكها قُرب درب البرابرة منذ أسبوعين ونحن نتفرَّج على نجف، كان الزحام والبنت تمدُّ يدها لتكلبش في يدي وتهرسها دون تحفُّظٍ، لكني شعرتُ بيدي تنسحب للأعلى، قدمي تبتعد عن الأرض، وذراعي يتقطع؛ جسدي مُعلَّق من ذراعي، نظرتُ؛ كانت يدها تكبل يدي، وأرى ذراعها فوق رأسي، كانت مرتفعةً وطويلةً جدًّا يا ثناء، تطير وتسحبني للهاوية، تُسلمني للسماء، وأنا أُمسك بسياج الرصيف، وأقاوم حتَّى تقطعت ذراعي، ولولا تصلُّبي على الأرض وعنادي لكان المدهش

fb/mashro3pdf

وَلِّي، صرختُ على الخلق أريدُ النجدة، وقلتُ ذراعي تتقطع مِن أفعالك. هبطتْ بنت الشياطين على الأرض في لحظةٍ، ترسم علامات الهبل وتُردِّد لي وللمتطلعين لصراخي بأنَّ الأتوبيس كاد أن يدهسني وهي تشدني، وأحس بعمودٍ مِن نار يخترق كفي لو حاولت تعديل كلماتها أمام الناس؛ فأخرسُ. كانت العلامات تضربني وأنا حمار كبير، علامة في إثر علامة وأنت مثل قوم فرعون يا يوسف، في تسع آياتٍ يا بنت الوسخة، وأنا مقيدٌ بالعِشرة والبنت الصغيرة، وأخدع نفسي تحت بند الوهم: أبي، أمي، الطيران، النمل، الأسد، الحبال، الفقاعة، الشقوق، والحجارة.

أراحت سلوى جسدها على صدري، تلاصقتْ أجسادنا في الميكروباص، كوعي يحتك في الصدر المدوَّر، كانتْ متعبةً؛ تغفو تحت تأثير ارتخاء العضلات والبرودة بعد يوم عمل وحرارة. أحطتُ كتفيها بذراعي؛ لإعطاء الجسد مساحةً أكبر للراحة. كنتُ أمسُّ كتفها البعيد بالأصابع، أخترقُ القماش العازل، أدفعه على مهلٍ، وأصنع فتحةً لمرور أصبعٍ، أتحسَّس رسالةً في وحي اللحم. خلسةً وفي سبيل الونس، ألتقط بهاتفي صورًا لملامحها الناعسة، أتطلَّع إلى وجهها الصغير المدوَّر، إلى بشرتها السمراء وخصلات الشَّعر الهاربة مِن حواف الحجاب، أنفها الدقيق، وفمها الوردي. كانت تختلف عن أنيسة، ورغم ذلك أُحبُّها، جسدها القصير المكتنز يختلف عن جسد أنيسة الأبيض

fb/mashro3pdf

الذي يُشبِهُ المسطرة. لكن لعينها نفْس الطيبة والدهشة المستمرة. كنتُ أُحِبُّ كفاحها المستمر للبحث عن فتحةٍ في العالم. تخرج مِن عملٍ إلى آخر ولا تيأس. طُرِدَتْ مِن عملها السابق لرفضها تحرُّش صاحب المحل وحصاره لجسدها في زوايا المحل الضيقة. تستنفرُ حواسَّها لإرضاء الزبونة؛ أَمَلًا في البقشيش. وبالها طويلٌ أمام ملامة صاحبة المحل. تذكَّرتُ مديري السابق؛ كان يجلس خلف المكتب يطالع أوراقًا. وقفتُ أرتجفُ أمامَهُ. تركني لدقائق في القلق. رفع رأسه. قال بصوتٍ مُحايدٍ: «أنت موقوفٌ عن العمل لحين انتهاء التحقيق». قال: «وضعك سيئٌ. الأمور كلها ضدك. وهناك أكثر مِن شاهدٍ». غاص في الأوراق مَرَّةً أُخرى: «أنصحك بالبحث عن عملٍ آخر». عاد إلى وجهي ومعه ابتسامة مكر. قال: «أعين زوجتِكَ في الشركة». رجع بظهره للوراء. أكمل: «اليوم غضبتْ عليك عفاف». ارتجَّ جسدُهُ بالضحك. ورأسه تكاد تقع وراءَهَ. لا وظيفة حتَّى يا "عفاف". خرجتُ مِن الشركة والأعين ورائي تقفز. وتُبلِّغ خط سيري لعفاف. تلتصق بكتفي. وحين أقترب بيدي لأهشها؛ تراوغ اليد. تفرُّ إلى ظهري. وتعود مِن جديدٍ. في البيت. كانت البومة تضحك. تعلم. وتضحك. العالم كله يضحك أمام وقوعك يا مُدهش. كنتُ أجرُّ ساقي. والانكسار في عيني يحمل الاستسلام النهائي. جلستُ أسفل قدمها مستندًا بظهري على المقعد. وتناولتُ قدمها بين يدي. دلكتها بخفةٍ.

fb/mashro3pdf

ووضعتُ الأصبع الكبير في فمي، وقعدتُ أمصُّ وأبكي. كنتُ أبكي بحرقةٍ، حتَّى ابتلَّتْ قدمها بدموعي. أمصُّ بقوةٍ ونهمٍ جائعٍ، أشكو لأصبع قدمها الكبير حالي، أحسستُ أنَّ الأصبع جزءٌ منفصلٌ عن عفاف، ولكنه عزيزٌ على صاحبته: مثل الابن. كنتُ أشكو لابن عفاف؛ لعله يحملها على الرفق بي. كنتُ أريد أن تدب فيه الحياة؛ لِيُحنِّن قلبها الذي تكلَّس فوقي. حياتي وقعت مني تمامًا.

في المساء، قلتُ لـ أبو عبده: «أنا خالي شُغل، لو تعرف من لديه عمل صلني به». قال: «ولا يهمك، أكل العيش بأمر ربك. وشغل الحكومة ليس ما يحزن الواحد عليه، الولد عبد الله ابني الكبير لم يرض بالتوظيف بعد التخرج من كلية الطب، وهو الآن صاحب مستشفى صغير يخدم بها أهله في البلد». ذهب داخل الدكان لعمل كوبي شاي، كنَّا نضع كرسيين أمام الدكَّان، ونتحدَّث إلى آخر الليل كعادتنا. أبو عبده صاحب محلٍ لبيع الأدوات الصحية قُرب منزلي الجديد في المطرية، لديه ثلاثة أبناء وبنت تفرَّقوا في بلاد الله؛ لأكل العيش، ومنذ أن ماتتْ زوجته وهو يقضي النهار كله في الدكَّان، ويذهب إلى البيت للنوم فقط؛ بعد أن أصبح البيت ثقيلًا بلا ونسٍ. كنتُ أشتري (تفلون) لاصق لتثبيت ماسورة الحمَّام التي تُسرِّب مياهًا منذ أسبوعٍ، سألتُ الرَّجُل عن سبَّاكٍ، وقلتُ له: «أنا جديد على الحي»، لكن الرَّجُل أصرَّ على جلوسي معه وشرب

fb/mashro3pdf

الشاي، وأخبرني بأنّني أشبه ابنه الصغير أحمد، الذي يعمل في الخليج. يُوزِّع عليَّ ذكرياته في كل جلسةٍ. لم أجد وقتًا في بحر حكاياته: لِأُحدِّثَهُ عن موضوع عفاف؛ فالرَّجُل كان مليئًا بأولاده البعيدين. عرفني مِن أول وهلةٍ ولم أتعجَّبْ. فالمظاليم تعرفون بعضهم بالنظر. اليوم سأتكلم، ألقي له بالسر الذي يضرب حياتي بالطول والعرض، أطلب مشورةً ونجدةً. وأنا قطعة حديدٍ انفردت بها مطرقة حدَّاد.

ناديتُ على السائق ليتوقَّف، نزلتْ سلوى مِن العربة وتبعتُها، عَبَرَت الشارع إلى مدخل البيت، بينما ظللتُ واقفًا في الجهة المقابلة، يدي تشيرُ بالوداع حتى غابت. هي بهجة الأيام المرة، لا تفتح شفتها لِتُنغِّص العيشة مثلما تفعل عفاف، ساعاتٌ قليلةٌ مِن رؤيةٍ مقتنصةٍ تضع جدارًا بيني وبين الجنون، نسيمٌ لطيفٌ بين لفحات عفاف الساخنة. منذ أن عرفتها؛ صرتُ أستيقظ مُبكِّرًا -مِن جديدٍ- بعد شهور مِن الصحيان المتأخِّر، ولخبطة يومي، واكتئابٍ مزاملٍ منذ تركي للوظيفة، أقف وأنتظرها أمام بيتها في السَّابعة، أصحبها إلى محل عملها، أحكي طوال الطريق عن ليلتي مع الملعونة، ما سلمتُ منه وما حاق بي، أنتظرُ في مقاهي وسط البلد، أقرأُ الجرائد وأشرب الشَّاي، وأختلط بالخلق، وأنظر للنَّاس كما كنتُ أفعلُ، وأُخمِّن أحوالهم، أظلُّ على الشَّوق طوال النَّهار، وحتى تظهر سلوى أمام باب المحل، أعرف مِن النَّظرة الأولى

fb/mashro3pdf

مسيرة يومها، كيف عنَّفَتْها صاحبة المحل: لأنها لم تقنع زبونةً بالقدر الكافي، أو دعتهم اليوم على الفطور على حسابها؛ لأنَّ إيراد المحل كان جيدًا. نذهب للتمشية أو شراء احتياجات للبيت، في الغالب منفردين، وأحيانًا بصحبة زميلات العمل، أُرافقها بعد ذلك حتَّى تعود للمنزل، وأُودِّعها على المدخل بقُبلةٍ على الكف المفرود، ثُمَّ ألوِّحُ بكفي لها. لكن سلوى ليست كأنيسة؛ سلوى تعبر الشارع بمفردها.

عندما دخلتُ لأوَّل مَرَّةٍ إلى بيت أنيسة، أخذتْني أُمُّها بالحضن، كانت تبكي بحرقةٍ، تأكل وجهي بالعين، وتقول: «أنا عارفاك». أجلستْني إلى جوارها. الفخذ يلتصق بالفخذ، طبطبتْ على كتفي، وملَّستْ على الظهر، كانت تبكي وتمسك بيدي بقوةٍ، تتمسَّك باللحظة تمامًا، وبين وقتٍ وآخر تدفنُ وجهها في كتفي، وتتشمم. كنتُ ذاهلًا عن العالم، لم أعرفْ ماذا أفعل للسيدة، بقيتُ صامتًا أمام دموعها المتعلِّقة في القميص. أستعيدُ أنيسة وهي تطلب مني أن أحملها بين ذراعي؛ لنعبر الشارع الواسع؛ لأنها تخاف العربات والطرق. أبوها مات تحت العجلات. كانت أنيسة تدفن وجهها في كتفي بينما أحملها، وتضحك من الخوف، يبتلُّ قميصي برذاذ الضحك إلى آخر النهار. ولكن عبور سلوى للشوارع بمفردها أهون مِن ألعاب عفاف التي اصطادتني بسِحر الجبال.

fb/mashro3pdf

بحدَّةٍ نافذ صبرٍ. قالتْ لي ثناء جهِّز نفْسك: في المساء سنذهب لمعاينة عروس، تعرَّفتُ إلى أُمِّها اليوم في المسجد. قالت: إنَّ البنت تُصلِّي في الجامع مع الأم، قالتْ إنَّ عين البنت ملتصقةٌ بالأرض. في وجهها حياءٌ، ويبدو أنهم على (قدِّ إيدينا)، قالتْ إنَّ ملامحها هادئةٌ، في مثل طولي وملابسها محتشمة، قالت إنَّ البنت عفاف أصغر مني بعشر سنوات، وأنت أول طالبيها، قالت إنها سألتْ: وسمعة أمها في الجامع جيدة. أتتْ بغيارات داخلية، وأمرتني أن أستحم، وأتخلَّص من ذقني النابتة، كوت الملابس، وألبستني قميصًا أبيض وبنطالًا رماديًّا، رشَّت كولونيا أخذتها مِن صندوق المدهش على الرقبة وصدر القميص، دهنت الحذاء، ودعكتْهُ بقطعةٍ قطيفةٍ حتَّى أصبح لامعًا، ركبنا المترو في المساء، بينما فضَّل محمد المدهش أن يبقى في المنزل إلى أن يحظى الطرفان بالقبول، أمرتني ثناء أن أشتري علبة شيكولاتة؛ كي لا ندخل على الناس فاضيين، ودسَّت جنيهات في يدي. دخلنا إلى الحارة الضيقة في المطرية، البيت الثالث جهة اليمين: بيت متهالك وشقوقه تكفي لإخفاء ذراع، شقوق كالتي صنعتها عفاف في بيتي، الشقوق التي تختفي فيها حين يمتلئ البيت بأنين خدمها. قالت ثناء لو أعجبتك البنت، اقرص كتفي، واتركْ لي تسوية الأمور. جلسنا في غرفةٍ ضيقةٍ، امتلأتْ بالأهل. كان أبوها يرتدي جلبابًا أبيض وأمها في عباءةٍ سوداء، حكى الأب عن أصوله وقريته وانتقال أبيه

fb/mashro3pdf

للقاهرة، ولكن الود ما زال موصولًا هناك. يريدُ أبناؤُهُ أن يدفنوه في القاهرة عندما تُوافيه المنية، لكنه قال إنه يريد أن يُدفن في بلده، وليس عليهم حرج في الزيارة. تحدث عن عمله كطبَّاخٍ في الجيش قبل أن يخرج إلى المعاش، وكيف كان اللواءت يُقدِّرونَهُ، وينادونه دومًا بعم موسى، ضحك وتحدَّث عن ملابسات زواجه من أم خالد، وكيف تزوَّجها خارج إرادة أهله، ولم يحضر أحدٌ منهم الزفة، إلَّا أنَّ الأمور تساوتْ مع الزمن: فبان الضيق على وجه المرأة، بينما أشاحت ثناء بيدها، وقالتْ: «الخروج عن طوع الأهل مربوطٌ بقلة البركة». فتراجع الرَّجُل، وقال: «الأيام مختلفة». تحدَّث عن رحلته في تعليم الأبناء، ووجود الطبيب والمهندس في عائلته، ولو على بعد سبعة أقرباء، تحدَّث عن عفاف، وكيف كانت (وشَّ سعد)، ونابهةً في الدراسة، إلى أن تحصَّلَتْ على دبلوم التجارة، فأمَّنَت الأُمُّ على كلامه بالحكايات، دخلتْ عفاف تحمل صينيةً عليها أكواب المشروبات، على وجهها بسمةُ خجلٍ، وعينها على الأكواب، ترتدي فستانًا أحمر يضيقُ مَن الصدر والخصر ليبرز أدواتها، وتبرز خصلات مَن شعرٍ أسودٍ وناعمٍ مِن مُقدِّمة الحجاب. عينٌ واسعةٌ عسليةٌ، بشرةٌ بيضاءُ، وأنفٌ مستقيمٌ وطويلٌ. وبالرغم من تلطُّخ الوجه بالأصباغ، كانت ملامحها هادئةً مثل أنيسة. انحنتْ وخيَّرتْ ثناء بين الأكواب: امتنعتْ ثناء، تعلَّلَتْ بالخوف مِن ارتفاع السكر. ونيابة عنِّي ردتْ:

fb/mashro3pdf

«يوسف مش بيشربها بسبب قرحة المعدة»، حلف عليها الأب والأم، وعرضوا أن يحضروا أي شيءٍ؛ لأنه أوَّل دخولٍ إلى بيتهم. كانت ثناء خلال الطريق إلى بيتهم قد نبَّهتني بعدم الشرب أو الأكل، فنحن لا نعرف نوايا النَّاس، وقد يكونون مِن (بتوع العَمَلات) لضمان زواج ابنتهم. نظرتْ ثناء في عينَيَّ مُتسائلةً عن الإشارة: لكنِّي نسيتُ مد يدي خلف ظهرها ومسألة قرصة الكتف، كنت سارحًا في مقارناتٍ، لكن ثناء لم تنتظر الإشارة: فالبنتُ أعجبتها، فاعتبرت سرحاني في وجه عفاف علامة موافقة، لذلك بدأت ثناء الحرب؛ تحدَّثتْ عن النصيب والقدر، وفي حال حدوث توافق ونصيب من الجهتين، فإننا نريد أن نعرف مقدرتكم، رد موسى بأنها البنت الوحيدة، وقرة عينيه، ويُشرِّفُهُ النسب، وأنه سيضع وزنها ذَهَبًا إلى بيتي، قال موسى: «التقيلة علينا، والخفيفة عليك يا أستاذ يوسف». عرضتْ ثناء الطلبات والواجبات، تهرَّب موسى بميوعة الكلام، لكن ثناء أخرجتْ أنيابها، ظلَّتْ لعبة القط والفأر بينهما إلى أن حاصرته ثناء في الركن؛ فاستسلم، وقرأنا الفاتحة. بعد شهرٍ مِن إتمام الخطبة، سدَّتْ ثناء عليَّ باب الغرفة وأنا أرتدي ملابسي لزيارة بيت عفاف، وأخبرتني أن أترك البنت، فأنا أذهب لرؤيتها كل يومٍ، ويبدو أنهم دهولوني بالأعمال، وأخبرتني أنها ستذهب لتسترد الشبكة؛ لأنني لا أجلس في البيت أبدًا، وأجري مثل (أبو شخَّةٍ)؛ لتقوم عفاف بتغيير ألبستي، وأنني

fb/mashro3pdf

أبعثر مالي وشقاي في الزيارات. قالتْ موسى يقصُّ ريشك، وينقضُ الاتفاق مِن خلال لهفتي على البنت. قالت لست ابني بعد أن تعبتَ فيك، أنت ابن أم خالد، لقد تعبتُ وهم تناولوك على الجاهز. صرخ أبي بينما يستعد للوضوء أمام صنبور المياه الموجود جوار باب الحمام: «ياوليه، الولد كبر، سيبيه يخلَّص»، لكن ثناء ذهبت للحرب؛ سعى موسى للإصلاح، ثُمَّ ماطل، ورفض إرجاع الشبكة لأننا مَن يتخلَّى، كان يضغط للتهدئة، لكن ثناء قامت غاضبةً، نزلتْ وهي تُصفِّق بيديها على جدران السلالم وباب السكة، صرخت أمام العابرين في الشارع: «والنبي لاخلِّي الشارع كله يتكلم في سيرتها يا واكلين عرق الولد». في اليوم التالي، زارتنا أم خالد ومعها الشبكة، قالت نحن كما تشاؤون، وحكت كيف حاولت عفاف أن ترمي بروحها مِن الشبَّاك، قالت إنها تبكي حتَّى انفطرتْ، ولا تعلم لماذا غضب الأستاذ يوسف. قالت إنَّ الطعام لم يدخل جوف البنت منذ أمس، لكن جملة «مفيش نصيب يا حاجه» علتْ على كل الكلام. في المساء؛ صحا البيت على صراخ ثناء، عرقٌ يتصبَّبٌ وألم، كانت تبكي، قالت إنهم هنا، حواليها، يضربون بالأظافر في البطن، توسَّلَتْ إليهم واستعطفتهم، ولمَّا استمروا خاضتْ في السُّباب. انفجرتْ أمعاء أمي، وماتت قبل الوصول إلى المستشفى.

fb/mashro3pdf

لها على الأرض طاعة، ولها في السماء الحبال.

كنتُ مدمى ولاهثًا، قدماي حافية، وحذائي في يدي، رميتُ جسدي على الرصيف أمام دكَّان أبو عبده، ورحتُ أعبُّ الهواء؛ اندهش الرَّجُل، وبسمل، انتفض واقفًا مخضوضًا، ويسألني «مالك؟»، ذهب إلى داخل المحل، وأحضر كرسيًّا وأسندني للجلوس، كنتُ منصرفًا عنه: لا أرى ولا أسمع، أتطلَّع إلى الأرض تحتي، ولا أتيقَّن مِن زوال الشُّقوق؛ كنتُ قطعتُ المسافة ما بين منزل سلوى إلى دُكَّان أبو عبده قُرب ميدان المطرية قفزًا بلا وقوفٍ، كنتُ أُفتِّش في الأرض، عيني تدور في الزوايا، والرَّجُل يستفسر أكثر: «ماذا جرى؟ أنت بخير؟». ضغطتُ الأرض بقدمي الحافية لأتحسَّس تحذيرًا ما، لكن رسائلهم توقَّفَتْ فجأةً كما بدأتْ، رسائل انهمرتْ على قدمي طوال الطريق، تنبيهاتٌ تندلعُ قبل مكان وزمن الفتحة لتنقذني، هدأتُ، ولكن الرَّجُل يُمطرني بالأسئلة، وأنا أستثقل الحكي، كيف أبوح يا أبو عبده، ورجولتي كحجرٍ ثقيلٍ فوق الفم، الأنثى عُكَّازها الضعف، الأنثى تستطيع البوح للأنثى بأدقِّ التَّفاصيل وتجد الطبطبة والمواساة، الأُنثى تذكر أكثر المناطق إيلامًا في جلسة نسوان، لكن الذَّكَر لا يبوح يا أبو عبده، بوح الذَّكَر خطيئة، والمواساة عند الذَّكَر إهانةٌ، نُسامح اتساع المهبل، ولا نقبل ارتخاء الذَّكَر، مهبل متسع هو فقدان للأنوثة، لكنه دليلٌ على عدم الرغبة؛ هو الشرف والاطمئنان، الأُنثى

fb/mashro3pdf

الباردة معيبةٌ، لكن تصلح كزوجةٍ وأمٍ: يطمئنُّ عليها الزُّوج في وسط ألف رَجُلٍ، تفخر البيوت بقصِّ لسان العانة: ليفقد التذوُّق، وليطمئنَّ الزوج أكثر على حرمة بيته. أمَّا عدم الرغبة لدى الذَّكَر فهي اللا رجولة، النقصان المهين والعيب التام، المرأة مغلوبة وصابرة وبنت أصول حين يضربها الزوج وتسكتُ، أمَّا الرجل فيتحول إلى (شرَّابة خُرج) حين تضربه أو تُهينه الزوجة، يتحوَّل إلى (شراشيب) تُزيِّن كيس الزاد، تُعطي الكيس وضعه الاجتماعي الملائم، تخيل أن تعيش مثلي كشراشيب تُلطِّخ جسم عفاف يا أبو عبده، لم أتحمل: بكيتُ، ولم أشعر بالرَّجُل الذي دخل إلى الدكَّان مَرَّةً أُخرى وأتي بكوب ماءٍ، قال: «اشربْ، واهدأ». فتناولتُ الكوب، وبلَّلتُ ريقي، كنتُ كالسد المنهار؛ تُفلتُ مني الكلمات دفعةً واحدةً، قلتُ له: إنَّ الشقوق حاصرتني في الطريق، شقوقٌ تبرز فجأةً من الأرض وتريد أن تبتلعني، ما إن أقفز متجاوزًا الشق، حتَّى يخرج الآخر تحت قدمي، شقوقٌ لا تظهر لسواي، تعبتُ مِن القفز المتواصل طوال الطريق، ومِن نظرات الخلق، زوجتي تستخدم الجن يا أبو عبده، لها فيهم الخدم، وتُسلِّط عليَّ الأرض بشقوق تمتلئ بالنار، عفاف تخلَّصَتْ مِن أمي وأبي لتظفر بي، تضع أبي وأمي وأنيسة في الشقوق، تتكلَّم الشقوق بأصواتهم وأسمع الأصوات مِن باطن الأرض، وأكاد أُجَنُّ. مِن أحد الشقوق برزت أمي، تخيَّل أنَّ امرأةً تسير في الاتجاه المقابل كانت على وشك أن تطأ

fb/mashro3pdf

رأس أمي بقدمها، رأس ثناء تطل فوق الأرض، محشورة بين الشق، وقدم السيِّدة تستعدُّ لدهسها، صرختُ في المرأة لتحذر موطئ القدم: فانتفضتْ وولَّتْ هاربةً، بينما الشارع يضحك، كان الشق كالمقص حول عنق أمي، ابتسمتْ، ومدتْ لي يدها مِن الأسفل بطبق وجهها ممتلئ نعمة ومضيء والله، قالت: «يا حبيبي، أعرف جوعك»، كان ذراعها مستندًا على الأسفلت كأنها تحاول الخروج، أردتُ أن أجذبها، كنتُ على وشك أن أحتضنها وأشدها مِن الحفرة، مددتُ يدي، وأردت أن آكل؛ فأنا لم أذقْ لقمةً منذ يوم، لكن أمي كلبشتْ في يدي وأرادتْ سحبي للداخل، نار موقدة أسفل قدميها، وأنا أصرخُ وأُخلِّص نفْسي مِن يديها، والناس يضحكون على بلاءٍ شفَّافٍ، سحبتُ يدي بصعوبة، وثناء غاضبة من ابتعادي، تجزُّ على أسنانها، وتقول: «عفاف تُحبُّك، وأرسلتني بالطعام، فأطعْ يا ولد، وكن رهن مزاجها»: صرختُ: «لستِ ثناء. أنت كلبة لسيدتك تتشكلين كما شاءت»: فصارت الأرض تهتز تحتي، الغيوم في عيني والحجارة تندفع نحو رأسي، رأيتُ جهنم تندلع أسفل ثناء وهي تزوم وتختفي، عفاف جعلت جهنم تحت أقدام الأمهات، تصنع مِن الذكريات لما تحب: فيضربني الخوف، ويحل مكان صورة ثناء الطيبة في رأسي، يتدلَّى أبي من السماء أمامي، يقول: «صلاة الفجر كما تعودنا يا يوسف»، يُناولني حَبْلًا، ويقول: «امسك لنروح للصلاة»، أنسى تحت فرحة الرؤيا وأمسك: فأجد الحبل

fb/mashro3pdf

موصولًا في سقف الشرفة، ويتأرجح بجسدي إلى الخارج من ارتفاع خمسة أدوار، والناس تصيح من الأسفل والأعلى: أفزع، وتترك يدي الحبل وأقفز بسرعة إلى الداخل؛ فأتبعثر في أرضية الشرفة. عفاف تضرب رأسي بالأحجار والحصى. أدرتُ له مؤخرة رأسي الدامية، وأنا أتحسَّس الجروح، الحصى يطير إلى دماغي يا أبو عبده بأمر عفافٍ، وتُسلِّط الكلاب والسيارات لتأخذ مِن لحمي، لا تقتل لكنها تلاعب، تقهرني، فأمشي مرعوبًا في الشوارع وأتلفت حولي، أَلُفُّ ساعديَّ حول رأسي للحماية وأنتفضُ كالأهبل وأبكي، أحيانًا تضربني حرارةٌ شديدةٌ تُذيب الرَّأس، أتحسَّس رأسي وأجدُ لسعةً حارقةً، أنظر وأرى حبلًا طويلًا يمتد ما بين رأسي وبين الشمس، حبل مِن حديد حامٍ مثبت في رأسي مُتَّصلٌ بالشمس، وعفاف لا تتأثر، تتعلق فيه وتضحك، تتعرى من ملابسها قطعة قطعة وتتأرجح على الحبل مثل الساقطات، ترقص فوق رأسي الحامية، تعبتُ يا أبو عبده، وأخجل والله من حكي البقية، هل أحكي لك عن ليلة الدخلة، كانت عانتها تتسع مثل باب جهنم، ويخرج منها الأسد، ويسد علي الطريق؛ فأبكي، وألتصق بالحائط، وبولي الساخن يمر إلى ساقي والأرض. سكتُّ، وغلبني الدمع من جديد، وضعتُ حذائي على الأرض؛ لأرتديه بينما كان الرجل مذهولًا وينتفض، وأنا أبكي وأقول لروحي هو لا يصدق تلك العجائب ويحسبك مجنون يا يوسف، لكن الرَّجُل وقف وذهب مسرعًا إلى الدكَّان،

fb/mashro3pdf

خطواته المرتبكة تتعثَّر بالرصيف ويكاد أن يسقط، كان يتمتم وأنا ألتقطُ كلمات مبعثرة منخفضة: «لا تمت. هي بنت الكلب. هي النجاسة بعينها»، رجع بدلو ماءٍ وكوبٍ، وغسل دماغي من الدم، وطبطب على كتفي وأنا مستغرب من كلماته، عاد إلى الدكان مَرَّةً أُخرى، فوضع رأسه تحت الصنبور المفتوح، ورجع يجلس أمامي صامتًا لدقائق ينقل بصره بين الأرض وكفه، كان الرَّجُل ذاهلًا، وقلتُ في نفْسي: «لديه. ولكنه يكتم»، اندهشتُ أن يُلقى في طريقي مَن لديه المعرفة، وأرجعت الأمر للملوك الزمان وحنوهم بي، سألني عن أصلها، انطلقتُ في الحكي عن أهلها، وعمل أبيها، وهيئة أمها، وإخوتها، ومسكنهم، وسيرتهم. كنتُ أعتصر رأسي وأتذكر: أمدُّ المُعالِج بالتفاصيل الدقيقة، خفض بصره، وبدا مهمومًا، وأنا أحترق، تطلَّع لما فوق رأسي، وقال: «في التسعينيات، كنتُ أعمل سائقًا لأُسرةٍ ثريةٍ في السعودية، سافرتُ على عين أمي، وبرغبةٍ من زوجتي، كان يخدم معي رَجُل من السودان تنحصر مهمته في توفير طلبات أهل البيت، يركب معي في الصباح ونقوم بتوصيل حريم البيت للمدارس، ثم نمر على الأسواق لشراء حاجات البيت قبل أن أعود إلى البيت مَرَّةً أُخرى، فينزل السوداني والمشتريات، وأضع السيارة الكبيرة في الجراج، ثم أقود سيارة رب الأسرة، وأظل معه طوال النهار مُتنقِّلًا بين شركاته. لكني اكتشفتُ سرقات الرَّجُل السوداني المستمرة، وأشرتُ إليه بأني أفهم ما يفعل،

fb/mashro3pdf

وعليه أن يتوقَّف، لم يتوقَّف وعرض علي المشاركة. أبلغتُ ربَّ الأُسرة، وحكيت له كيف يتلاعب السوداني بالأسعار؛ فأحضره صاحب البيت وهدَّده بالسجن إلى أن أقرَّ السوداني بذنبه، وبكى، وترجَّى، فاكتفى الرجل بطرده، وعهد لي بالوقوف على السوداني أثناء جمع أغراضه والرحيل. كنتُ أقف أمام باب غرفتهم المفتوح بينما يلمون الحاجات القليلة. أسمعه يبكي ويحكي لامرأته ما حدث، خرجت غاضبةً ونظرتْ لي، لم تتكلم، ولكنها انحنتْ ومسحتْ بيديها الأرض أمام قدمي، كنتُ أعرف أنها ذات صيتٍ في مجال السِّحر. ويُقال إنها غضبتْ على زوجها في مَرَّةٍ، وعندما جاءها، تحوَّل مهبلها إلى بحرٍ واسعٍ، ابتلع الرجل الذي كاد أن يغرق؛ فسمع الحرَّاس صيحات استغاثةٍ، ودخلوا إلى الغرفة؛ فوجدوا الرجل في ركن الغرفة مبتلًّا ويبكي، وهي تفترش الأرض جواره، وتتناول العشاء بلا اهتمام. بعدها كنتُ أجد الأرض تتزلزل تحت قدمي، وتنفتح لتظهر آبار عميقة سوداء وتختفي، أظل أقفز طوال النهار مِن فتحات الأرض، وكأنَّ الأرض حامية على قدمي، وصاحب البيت حسبني مجنونًا، ولولا الثقة والعِشرة لطردني. حاول علاجي بشيوخٍ ورقيةٍ، ولم أستجب لشهور، هاتفتُ أمي وكنتُ أبكي، طلبتُ دعاءها، وقلتُ إني سأعود كما أرادتْ، ولن أبرح الأرض أسفل قدمها بعد ذلك. رجعتُ إلى أمي، ولكن حال الأرض استمر معي، كنتُ أتعثَّر في كل خطوةٍ. جسدي امتلأ بجروحٍ،

fb/mashro3pdf

وكُسِر ذراعي، تمدَّدتْ أيامي عليَّ وأنا حبيس غرفتي بإرادة مرغمة. في ليلةٍ سمعتُ صراخ زوجتي يرجُّ البيت، فقلتُ: مصيبتي أصلها طمعك ولن أخرج لأطمئن، في الفجر دخلتْ أمي إلى الغرفة، وقالت لي رُزقتَ ببنت يا سيد. لم نستخدم الأطباء أبدًا، كانت أُمِّي مَن تولَّى أمر ولادة أبنائي، وكنَّا نستبشر بها، قلتُ لها لم أنجب الرابعة بعد ثلاثة ذكورٍ، إلَّا لتتشرف وتكن على اسمك يا حاجَّة. قالتْ اخرج لتراها، وشدتني مِن ذراعي وأنا مُتردِّدٌ، ظهرت الشقوق أمامي، تنتشر وتأكل في الأرض، صرختُ وأردتُ الرجوع، لكن أمي وقفتْ على الباب ومدَّت ذراعيها وأمسكت عضادتي الباب؛ فسدَّت طريق العودة بجسدها، داريتُ عيني بكفيَّ، ووقعتُ على الأرض قبالتها، كنتُ أولول كالحريم، قالتْ: أحضروا البنت، وقالتْ: اهدأ وأشر لي على موضع الشق، كانت تضع البنت حسب الإشارة، وما أن يُلامس الشق جسد الرضيعة حتى ينغلق، ابتسمتْ أمي عينُ الرضا، وفهمتُ، لم أذهب إلى جهة إلا والبنت معي، حتى في دورة المياه كنتُ آخذها؛ حتى صار تعلُّقي بالبنت أضعاف تعلُّقي بالذكور الثلاثة، ندرت الشقوق، ثم لم تعد للظهور بعدها أبدًا».

أنهى أبو عبده حكايته، بينما كنتُ أخجل من مصارحته بالحقيقة، لا أعرف كيف أحكي عن كائنها الذي يُضاجعُها في حضوري، وكوني عديم البذور في حضورها؛ فقلتُ بدلًا: «هي

fb/mashro3pdf

أحوط من ذلك، وتحفظ الصغيرة عند أمها منذ فترةٍ، تعرف أنَّ البنت تحول بيني وبين سحرها»، قال: «كان بودي أن تُؤدِّب الملعونة بكفك، هي خارج الملة بالأذى، ولكني لم أمد يدي في العمر على امرأةٍ، حتى ابنتي ربيتها بالنظرة مثل السلحفاة». صمت، نظر إلى يده قليلًا ثم قال: «اظهر اللين لوجهها حتى أدلك»، توسلتُ إليه بالسبب الرئيس الذي حملني على البوح: «أريد أن أنام في دكَّانك ليلًا حتى السبيل، لن أرجع ليدها، أنت لا تعرف البقية»، بدا معترضًا؛ بكيتُ وقمتُ على يده، قلتُ: «لي بيت أبي، سأذهب حالًا إلى المستأجر، فقط يومين حتى يخرج المستأجر، وأُدبِّر حالي»، رق قلبه، نطق بالفرَج: «خذ لفتك، وارجع مساءً، أكون رتبت لك المطرح».

في الطريق إلى بيت أبي، نزلتُ إلى شارع بورسعيد، ومنه إلى شارع الخليج، كانت الصيدلية القديمة على يميني، ويليها الجامع. رأيتُ الدماء تملأ الأسفلت قرب باب الجامع، غزيرة وتنبع مِن شقوق نابضة، الأرض تضخُّ، والدماء سرتْ في خطَّين، أحدهما كان يتَّجه للجامع: شريان ضخم، بينما الآخر بدا ضئيلًا وامتد في المنتصف على طول الشارع. أمام الباب توقَّف الخط الأول، تكوَّم أمام العتبة. تكلَّس وازداد ارتفاعه، بدأ في الانتصاب، تراقص، شكَّل قدمين، ثم جسدًا، ثم ذراعين ورأسًا، بدا كطفلٍ، فرد كفَّيهِ، فتجمَّع الهواء في يديه على شكل كرةٍ، بدأ الصغير في الجري، وركل الكرة أمام الجامع،

fb/mashro3pdf

سرى، وتضخَّم الدم أكثر. بينما تحوَّل الهواء إلى كِتابٍ وعصا مُعلَّقةٍ فوق الرأس، قعد الولد وأمسك بالكِتاب على العتبة، ارتفع صوته بـ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُوْنَ﴾، تعثَّرَتْ كلماتُهُ في ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُوْنَ﴾، فوقعتْ على رأسه العصا، وقف، خالط الهواء غبارٌ أسود، وتحوَّل الهواء إلى نعشٍ، أمسك الفتى بمقدمة النعش، علا نحيبُهُ، قطَّر دمًا من عينيه، كان تائهًا ويسأل، صار الهواء فأسًا أمسكها الولد، ضرب شقوق الأرض بالسؤال عن المغادرين، تضخَّم بالدم المتدفِّق، صار الهواء محطَّةً وقطارًا يعوي، ركب القطار ولا أحد على المحطة، كان تائهًا ويسأل، تضخَّم الدم أكثر، نمتْ له لحيةٌ وشاربٌ فبدا أبي محمد المدهش، جسم شفَّاف، أحمر، كان يسيرُ في مكانِهِ، ثُمَّ يركض دون أن يتحرَّك خُطوةً للأمام، العرق يتصبَّب منه على الأسفلت، وقدماه تعافران كي لا ينزلق فوق عرقه، أمسك ذَكَرَهُ بيده، كان تائهًا ويسأل، صار الهواء نساءً متعاقباتٍ: سميناتٍ ونحيفاتٍ، قصيراتٍ وطويلاتٍ، وهو مستمرٌّ، يروح ويجيءُ بخصره، كان يُضاجع الهواء، توقَّف فجأةً، نظر إلى السَّماء طويلًا، أتى الهواء كامرأةٍ قصيرةٍ تحني الرأس أمامه، ما إن لامسها المدهش، حتى ملأتْ كتفيه قُبَلًا وظهره لمساتٍ حانيةً، ضاجعها على مهلٍ، كان ظهره يتوقَّف أحيانًا، ولا يتابع بالقوة الماضية، تتدخَّل يده لتدفع ظهره باتجاه المرأة، يلتقط عصا مِن الفراغ باليد الأخرى، وينهال ضربًا على رأس المرأة، توقَّف،

fb/mashro3pdf

فرد كفَّيهِ أمامه، وانتظر، صار الهواء طفلًا بين يديه، ركض الدَّمُ مِن جديدٍ، ألصق الهواء على فمه، كان يضخُّ فيه، كان الدَّمُ يسير مِن ذراعيه وساقيه إلى الهواء الذي صار أحمر، هبَّ غبارٌ أسود، أحاط الهواء بين كفَّيهِ. كان المدهش غاضبًا، وينفضُ الغبار بذراعِهِ بعيدًا عن طفل الهواء، حاول أن يدفع طفل الهواء إلى داخل المسجد، كان يُلاطف بالحيلة، أو يدفع بالعنف، والكتلة تزداد كإعصارٍ، تُعانده وتفرُّ مِن بين يديهِ بعيدًا عن الباب، تخاذلتْ ذراعاه، بدا يائسًا، كان تائهًا ويسأل، بكى، تقوَّس ظهرُهُ وانحنى، ترك الهواء خلفَهُ محاصَرًا بالغبار، ودخل إلى المسجد، جلس وطبطب الحائطُ على ظهرِهِ، صعد إلى المنبر، تحدَّث عن ﴿يوم ينظرُ المرء﴾، خرج مِن المسجد، لاطفه النسيم، صفا الهواء، واختفى الغبار مِن حوله، ابتسم، وقال للهواء: جمعة مباركة. كان يعبر الشارع عندما أتتْ سيَّارةٌ مسرعةٌ، على مُقدَّمَتِها التصق خيط الدم الآخر المنفلت في منتصف الشارع، كان خيط الدم يسحبها بالجنون، ويصرخ بدلًا مِن البوق: أحنُّ، تعانق الخيطان، وقع محمد المدهش، وتجمَّع الخلق لتخليص اللحم مِن الحديد، كان اللحم يُعاند الأيدي، ويتمسَّك في الحديد، بينما انفرط خيطا الدم مِن الجهتين، اندمجا، سارا كشريانٍ واحدٍ إلى الشقوق التي انغلقتْ عليه مَرَّةً أُخرى.

fb/mashro3pdf

عمو الشيخ حسين ابن قحبة، والأستاذ علاء ابن شرموطة، وأبلة نوال مزيج مِن الاثنين.

أكملتُ السَّير في شارع الخليج المصري، فابتلعني فُم الخليج، الورش صارت أكثر ضجيجًا، والمُعدَّات مبعثرةٌ فوق الأرصفة ومُتعلِّقةٌ بين الأيدي بأصواتٍ معدنيةٍ أزليةٍ، كدتُ أتعثَّرُ أكثر مِن مَرَّةٍ في المخلَّفات المُلقاة على الأرصفة المتكسِّرة والمعادن المنتشرة؛ فتذكرتُ عراك المدهش مع مُحصِّل الكهرباء حين أضافت الحكومة قيمة خدمة النظافة للفواتير، كان منفعلًا ويقول: إنَّ الأرصفة حديثة العهد بالشارع، وإنَّ الشارع كان في يومٍ ما قناةً مائيةً رائقةً، تمضي فيها المراكب الشراعية، وتحوطها أشجارٌ ونباتاتٌ، شرفات المنازل تطلُّ علي الماء مباشرةً دون ضفافٍ، يصل شطري القناة مجموعةٌ مِن القناطر يتنقلُ عليها الناس بين الجهتين، كانت الحياة نظيفةً والشوارع مرايا دون أتعابٍ إضافيةٍ، لكنَّ الإهمال أدَّى لانتشار المخلَّفات والأوبئة في المجرى، فتمَّ ردمه وإقامة الترام مكانه، ضحك المُحصِّل وقال: كلامك مغلوط يا شيخ، المنطقة كانت صحراء مهجورةً قبل أن تتدخَّل الحكومة بالكهرباء والمياه النظيفة والترام، كان صراع الذكريات مشتدًّا بينهما. المدهش يُصرُّ على حكايات جده، والمحصِّل يمتلك ذكرياتٍ حكوميةً، قاطعتْهم ثناء مُنحازةً لرأي المُحصِّل: «وأنت تعرف أكتر مِن الحكومة يا حاج، تربينا هنا ومسمعناش عن ترعة في الشارع. ادِّيه الجنيهين

fb/mashro3pdf

واترك الرجل يتوكّل». صرخ بأعلى صوت: «يا امرأة، اسمه شارع الخليج، وكان فيه خليج مِن أيام سيدك عمر بن الخطاب». وجدتُ نقطةً في بحر ثأرها، ضحكتْ: كانت تتشفّى، بينما تغمز للمحصِّل بعينها، وتنقر بالأصابع على جانب الرأس في إشارةٍ إلى أنَّ الرَّجُل كبر ومخه (فوّتْ): «يا غُلبي منك، برضك بورسعيد يا حاج كانت موجودة في شارع بورسعيد، وقامت في يوم وراحت على البحر، ادخل لأوضتك الله يهديك». تركهم المدهش، اتجه إلى الغرفة بظهرٍ محنيٍّ وضغط دمٍ مُرتفعٍ، نسي؛ فاصطدم بالباب المغلق قبل أن تمتدَّ يدٌ مرتعشةٌ لتفتحه، كنتُ أسنده إلى كتفي، يدي تحت الإبط، والأُخرى تضع منديلًا لتوقف نزيف رأسه من أثر الصدمة. في المستوصف، كان الطبيب يشدُّ الخيط فوق الجبهة، بينما التفت المدهش نحوي، وقال: «يا يوسف، تشبَّثْ بذاكرتِكَ فقط، لا تسمح لهم باللعب فيك». كنتُ أتشبَّثُ أكثر يا شيخ كلما مر الوقت، أُقاومُ الثُّقوب التي تملأ ذاكرتي مع الهزائم، لكن سد الثقوب يجعل الروح موجوعةً يا مدهش، لا بُدَّ مِن ثقوبٌ لتتنفَّس الروح.

دخلتُ إلى الحارة، كلَّمتُ العابر فلم يردَّ، سلّمتُ ولا مجيب، وقع المحذور يا يوسف، وأحاطتْكَ فقّاعة عفاف من جديدٍ، ضربتْك بالعزلة. فقّاعةٌ تلتفُّ حولي، شفّافة لي، وخافيةٌ على غيري، نفس الفقّاعة التي تسبَّبَتْ في طردي مِن الوظيفة. محيطةٌ كالرحم، بها أشاهدُ ولا أصلُ، أَسمعُ ولا

fb/mashro3pdf

أُسمعُ، كلامي يرتدُّ إلى وجهي، كنتُ معزولًا كميّتٍ، ويائسًا كحجرٍ. عبرتُ أمام صالون الحلاقة، العتبة صارتْ تستوي والشارع، بينما انخفض مدخل الصالون بعدَّة درجاتٍ إلى الأسفل، كان الصالون مرتفعًا في الماضي عن الشارع، وكانت الدرجات خارج المحل، وليست داخله. أمام العتبة تكوَّمَتْ بحيرةٌ صغيرةٌ كريهة الرائحة مِن مياه المجاري، بينما صوت إذاعة القرآن لا يزال يخرج عاليًا مِن المحل. صاحبه الشيخ حسين كان صديقًا لأبي، يُصلِّي مأمومًا خلفه في الخمس مرَّات، يجبر الزبون على مرافقته إلى المسجد في شارع الخليج إذا حانت الصلاة؛ فيسير الزبون بملاءةٍ بيضاء على صدره، وشَعرُهُ يُلوِّثُ ما حوله. لا يقصُّ شَعرالنصارى، ويُعلِّق لوحةً فوق المرآة كُتِبَ عليها بخطٍّ أسود رديءٍ: «عفوًا.. لا نقوم بحلق اللحية». ذقنُهُ الضَّخمة كانت تخدش وجهي وقفاي كلما تناول رأسي، وجسده قصيرٌ وضخمٌ. نسيتُ أمر الفقَّاعة، وأشرتُ للشيخ حسين بالسَّلام، كان ينظر في عيني، ولكنه لم يرد، كرَّرتُ السَّلام، فاستدار إلى رأس الزبون أمامه ولم يردَّ، قلتُ: «يابنت الكلب يا عفاف». كان حسين طقسًا إجباريًّا في كل شهرٍ، يُرسلني أبي إليه، أقعد وأستمع إلى محاوراته الدينية مع الزبائن، أستسلم للماكينة والمقص، أذهب بعدها إلى البيت لأستحم، ويتولَّى أبي أمر الحساب. حاولتُ أن أتخلَّص مِن ذلك الواجب الشهري بعد حادثة الصلاة، أن أختار وأذهب لحلَّاقٍ آخر؛ لكن المدهش

fb/mashro3pdf

نهرني، وضربني أمام البيت عندما ذهبتُ لحلّاق آخر دون علمه. كنتُ صبيًّا، ورآني الشيخ حسين أدخل إلى المحل، فبدا غاضبًا. سحبني مِن يدي بعنفٍ، وأجلسني على كرسيٍّ في زاوية المحل، كرسي مِن الخشب صغير ومهمل، بقاعدة مدورة وبدون ظهر، وليس أمامه أي مرآة. كدت أقع حينما دفعني على الكرسي، قال: «لماذا لم تحضر اليوم إلى صلاة الفجر مع الشيخ!»، انتبه النَّاس في المحل، وتوقَّف الكلام الدائر. ارتبكتُ، خائفًا قلتُ له: «نمتُ»، قرص كتفي بقوةٍ، كنتُ أصيح مِن الوجع، قال: «وتكذبُ أيضًا! أبوك قال أنك استمنيتَ يا كافر، شاهد ملابسك المليئة بالمنيّ يا كلب، كبرتَ، وتستمني، وأمُّكَ ترفض خروجك بعد الحمَّام بحجة البرودة». اندقَّ وجهي في الأرض، وحسين يمر على رأسي بالماكينة، ويصرخ بعد دقائق: «اخرج منها». كنتُ أهرب من تحت يديه، أجري وعيني على الأرض، أتعثَّر في المقشة والطاولة، كأن طيزي عارية، وهم ينظرون، ولا أريد النظر إلى العري في الأعين. عند باب المحل، التفتُ بسرعة إلى المرآة، تطلعتُ إلى رأسي؛ كانت ماكينة الشيخ حسين عاقبتني، وتركت رأسي دون شعرةٍ واحدةٍ، خرج ورائي وهو يصيحُ أمام باب المحل: «والله لو فعلتها مَرَّةً أُخرى لأقطع خبرك». بكيتُ في الطريق إلى البيت، ظلَّتْ دموعي كجدارٍ بيني وبين الخلق في الحارة، كانت تقع أمامي، فأنزلق على الأرض، وتقع خلفي فتوقع العابرين من الضحك. عند مدخل البيت

fb/mashro3pdf

رأتني سلمى، دامعًا وأصلع ومهانًا، كانت عيناها كالسهام الموزَّعة على الرأس والدموع والعانة. لحظة واحدة عرَّت روحي، كنتُ أرى ذَكَري مكشوفًا أمام عينيها كأنها تعرف، رأيتُ عضوي يخرج من بين فخذي، يفتح السوستة ويتطلع إلى سلمى، كنتُ أريده أن يعود ويحتجب، كان يتدلَّى رغمًا عني في مرآة عينك يا سلمى، نسيتُ رأسي والدموع والشيخ حسين وأبي والشارع، كنتُ أفتِّش فيما حولي بعين تائهة، أخرجني الشيخ حسين، ولم يُعطني ورقة تين يا سلمى. خافتْ وهربتْ مِن أمامي صاعدة الدرجات إلى البيت، ندمتُ على تطلُّعي في المرآة، على النظرة، قلتُ: ليتني لم أعرف، المعرفة تهزُّ الواحد يا مدهش، تكشف عُريه لعينيه، تفقأ روحه بالحقيقة.

أفقتُ مِن الذكرى أمام قهوة سعادة. كنتُ لا أزال في فقَّاعة عفاف، تخدَّلتْ ساقي مِن المشي والذِّكرى، فوقعتُ على أقرب كرسي، تعبتُ ولا فائدة من الذهاب إلى المستأجر بحالتي. نظرتُ إلى الجالسين: تغيَّر المقهى منذ زمنٍ بعد حادثة أبي أحمد الجزَّار، وتغيَّر الجالسون، لم يعد ملجأ الخفافيش، أصبح عاديًّا بلا ميزةٍ. كنَّا نهرب إليه من المدرسة، نلتقي بالهاربين من البيوت والأعمال، ندخل فرادى إلى المقهى، بابه شبه مغلقٍ، فتحة ضئيلة في الباب تكفي ليمر الواحد منحنيًا أسفلها تحت سيف الحذر من الأعين، وجنيه يغطي المشروب ومشاهدة فيلم السكس. سيف الحذر لا يمضي على الكل؛

fb/mashro3pdf

فالبعض يدفع باب الدكّان إلى الأعلى بيديه ويدخل، يَصِرُّ الباب ويرتطم في السَّقف بضجيجٍ يلفت الأعين، ولا يعبأ الجبَّار الداخل، بينما نتخفى، وننكمش فوق المقاعد: خوفًا من عين عابرة أمام القهوة. أمام الشاشة تتسمر الأعين، حاملة ومندهشة ومتمنية، لا يفسد المتعة إلا التعليقات والمناقشات التي تدور حول الفيلم، وهي تعليقات تبرز العضلات لفرض رأي أو إثبات الرجولة والفهم، تصل التعليقات لجدال يستسلم فيه الغلبان ويبتسم أمام ما تحت الكلمات من إهانة واتهام بعدم الرجولة وبقلة المعرفة فيما يتعلق بمهارة الممارسة وطرق الإمتاع، بينما تتلذَّذ العضلات في إذلال الخصم بتكرار المعرفة مَرَّةً بعد مَرَّةٍ طوال الفيلم، وقد يأخذ الذل منحنى أبعد مع واحدٍ مِن أسياد المنطقة حين يستلم مغلوبًا بالتهكُّم طوال الجلسة ويطلب منه أن يُكرِّر وراءه ما أعطاه من معرفة كي لا ينسى، أو أن يعرض الإشراف عليه بشكلٍ عمليٍّ ليوجهه لممارسة صحيحة؛ لذا تنقسم الجلسة إلى فئتين: غلابة يتكومون في المقاعد الخلفية ولا ينطقون لتجنب العضلات المستعدة، أو أصحاب لسان لا يتوقف يجلسون أمام الشاشة. وحتى عندما يطلق المحارب رأيًا غريبًا بهدف الاستدراج، كانت قاعدة الطرف الآخر هي التأمين من البداية على معرفة القوي أو الصمت. لم يكسر تلك القاعدة سوى محمود صبي القهوة الجديد، الولد كان عنيدًا ومساقًا بقدر خفي: كانت البطلة

fb/mashro3pdf

تموء في الشاشة، ترفع فخذها الأيمن على ساعد اللص الواقف قبالها، وتستقبل العضو واقفة. أطلق أبو أحمد الشبكة ولم يتوقع الصيد، فقال إنَّ هذا الوضع يُسمَّى (الأمريكاني) وهو أفضل الأوضاع. فهزَّ الصبي رأسه بالنفي وهو يضع كوب قهوة على الطاولة أمامه، وردَّ عليه: «المره ماتتكيفش غير من الفرنساوي؛ لأنه بيحُكّ في السقف». استمر الجدال، والولد متشبثٌ بكرامته إلى درجة نسيان الفيلم، وحتى انفعل أبو أحمد، ووقف، كان يُشيح بذراعيه، ويقف على أطراف قدميه ضيقًا بتكذيب الولد، لم يصدِّقْ أن يفعلها أحد معه، أقسم بالطلاق البائن على صحة قوله، صفع الولد على وجهه، فتناثر الدم والأسنان، قال: «يا منيوك، منيك لسه في طيزك فإزاي تعرف؟ أنا جرّبت الاتنين مع خالتك أم أحمد، وهي اللي حكمت يا جحش». بكى الولد، كان ينظر بغلِّ اللاحيلة، تكوَّم أسفل البنك، تمر أنَّاته على كفه قبل الخروج مكتومة إلى الهواء، ضرب الصمت المقهى؛ توقعنا رؤية دماء أول المتكلمين، انسحبنا بخفةٍ وحدًا بعد الآخر. بعد أسبوع، كان أبو أحمد يجلس كالعادة أمام محل الجزارة في آخر النهار بعد انتهاء الشغل وانصراف العمَّال والعيال، يعتلي الكرسي الخشبي فوق المنصة الحجرية العالية، ويُدخِّن البوري، أمامه علَّاقات لحم فارغة تتمايل مع الهواء، بينما صبيُّهُ الصغير داخل الدكَّان يقوم بتخزين اللحوم في الثلاجات استعدادًا

fb/mashro3pdf

للغلق. دخل صبيةٌ غرباءُ إلى الشارع، لا نعرف مِن أين أتوا، وقفوا أمام محل الجزارة، كانوا يُصفِّقون بالأيدي ويقرعون علبًا صفيحيةً، بدأت الزفة: «مراة أبو أحمد بتاخده واقف.. مرات أبو أحمد بتاخده ناشف»، كان الرَّجُل كالمجنون، سحب أقرب ساطور، ركض وراءهم والساطور في يده، واليد الأُخرى تدفع الخلق أمامه، عيناه كؤوس دم، والعابر يفسح لإعصاره. تفرَّق العيال كالنمل إلى الجحور، ركض حتَّى مدخل السُّوق في شارع الخليج، طال أحدهم وأمسك به، رفعه مِن عقبيه كالذبيحة، وتجمهر العالم من حوله، حاولوا تهدئته بالرجاء والمحايلة لإفلات الولد، كان يدفع كل مَن يقف أمامه، سب الدين وصرخ: «هعلقه زي الخروف قُدَّام المحل، والدَّكَر يفكه»، بدا الموضوع مرتبًا حين أحس أبو أحمد بألم أول طعنة في ظهره، عميقة وتخترق الكبد، لم تستطع ساقاه حمله، ووقع على ركبتيه، ظهرت المطاوي والسافوريات في الأيدي، قطَعوا ركبتيه بضرباتٍ متقنةٍ، استند على الأرض بيديه، وبدأت عملية التشريح. لم يُعرف مَن وراء العملية، تجمهر أبناؤه وصبيانه تحت منزل صبي القهوة الذي أغلق باب البيت بالجنازير ليمنعهم من الصعود، قذفوا واجهة المنزل بالمولوتوف وضربوا القفل بماء النار ليصعدوا له وسط صراخ نساء الحارة، حضرتْ قوة مِن القسم وطاردتهم؛ فأطلق أحمد النار على القوة، أخذه مأمور القسم مُكبَّلًا، واستدعى الأم والإخوة

fb/mashro3pdf

إلى القسم: ليروه والعصا في دبره. أُصيبت أمه بالسكري ولزمت الفراش إلى أن ماتت. أمَّا هو فقضى مدة عقوبة، وبعد خروجه باع البيت والمحل، وغادر مع إخوته المنطقة، أصبحتْ عين الحكومة على الحارة، وتوقَّفت القهوة عن عرض الأفلام.

حين نظرتُ إلى الجالسين، لم أجد صديقًا مِن القدامى، صحيح أنهم كانوا قلةً، كنتُ أتخلَّص منهم واحدًا بعد آخر، كنتُ في فقَّاعة صنعي قبل ذلك يا عفاف، ليس لك فيها دخلٌ، لكنك تضربينني بأفعالي القديمة يا عفاف، تُعاقبينني عليها بالإعادة القاسية. صنعتُ فقَّاعتي قبلك: الصحاب سحبوني إلى لعب الكرة، نذهب كل يوم –بعد العصر- إلى الأرض الخلاء خلف مصنع المشروبات الغازية، ونلعب حتَّى الليل، يدخل العمران إلى الأرض، وتنقطع عادة اللعب بالتدريج، أبتهجُ وألعبُ معهم حتَّى يملّوا ولكني لم أملَّ، صرتُ في فقَّاعة: أضرب الكرة وحدي في الجدران وأنتظر، سحبوني إلى المقامرة على روليت مصنوعة من الصاج، تدور الكرة المعدنية ولا تقف مَرَّةً على الرقم الذي اخترتُهُ: خسروا أموالهم، وملُّوا، وظللتُ أخسر ولم أملَّ، علَّموني كيف أصنع أكساس صناعية: نشقُّ إسفنج المرتبة ونصنع تجويفًا على مقاس العضو، نُبطِّن الفتحة بأكياس البلاستيك، شقوق رحمة وليست عذابًا يا عفاف، كبروا وتزوَّجوا وملُّوا، بينما لا زال عضوي محقونًا بالخيالات في المرتبة، كلما ألصقوني بشيءٍ ملوُّا منه وتركوني

fb/mashro3pdf

فيه: لكني –مع الوقت- فضَّلتُ الأشياء عليهم كي لا ألتصق بأشياء جديدة. جفَّ حلقي: نسيتُ وصحتُ لطلب كوب ماء من صبي القهوة. يارب لماذا لم تصنعني على أعينهم هذه المرة! رأيت الأستاذ علاء مُدرِّس اللغة العربية في ابتدائية النقراشي بين الجالسين. يمسك بيده كوب شاي، نفْس اليد التي جعلت خدي الأيسر أثقل من الأيمن، على الأيسر تتجمع 142 صفعة، بينما يحمل الأيمن 141 فقط، برغم أنَّ الصفعة الأُولى كانت من نصيب الأيمن: كان يدخل إلى الفصل لأول مَرَّةٍ، جسده الضخم يسدُّ الضوء القادم من الباب ويترك ظلًا مهيبًا على الأرض، الزبيبة تملأ الجبهة. تطلع إلينا وبدأ في الإشارة بإصبعه نحو كلِّ واحدٍ منَّا. قسَّمنا إلى مجموعتين، واحدة على اليمين وأُخرى على الشمال، كان يتفحَّص الواحد بدقةٍ، يختبره ويتقصَّى ملامحه، يُطيلُ النَّظر قبل أن يضعه في الجانب الأيمن أو الأيسر، أشار لي بالذهاب إلى الركن الأيسر، كنتُ أحاذر أن تطأ قدمي ظله، انتهى مِن التوزيع، ونظر إلى مجموعة اليسار، ابتسم وقال: «بفراسة المؤمن أعرفكم يا كلاب»، نظر إلى اليمين وأكمل: «على اليمين مسلمون وموحدون بالله»، ثم التفت إلينا: «أما اليسار: فهم نصارى الفصل»، ضحك: فصرختُ فيه «اسمي يوسف محمد يا أستاذ، وأبي شيخ كبير»: فباغتتني الصفعة الأولى. قلتُ والله لأستفيد مِن مكرك يا بنت موسى وأجعل مِن شرِّك فائدةً. ذهبتُ إلى طاولته،

fb/mashro3pdf

فتحتُ سوستة البنطلون وأخرجت ذَكَري، كنتُ أتبوَّل في كوب الشاي أمامه وأضحك، بينما الفقَّاعة انفثأت دون أن أشعر، عرفتُ عندما هب الأستاذ علاء واقفًا ليخلص خدي الأيمن من الخفة.

هرولتُ وسط الضحكات والشتائم، كنتُ أجري خارجًا من الحارة وعيني على الباب؛ أعرفُ أنكم في البعيد، وأنَّ ذكراي فيكم حديد، يا جيرة بانت عن مغرمٍ صبّ، سافرتْ سلمى مع الطبيب إلى السعودية، قالت أبلة نوال إنَّ لديه بدلًا من الشقة ثلاث، وإنه في إجازة قصيرة، ويرغب في بنت حلال، قالتْ إنها رتبت لقاءً ونريد أن نفرح، قالتْ إنَّ شقة العروس أكبر من الحارة بحالها، لم يُفكِّر الأب وأهمل العِشرة والعشم، كانت نظرات الطبيب تسحقني وتُشير عليَّ بالغلب، تتعمَّد نظرتُهُ إرباك سلمى أمامي، وتسحبها خاضعةً لذراعه، كان يُشهد النَّاس على ذُله لمُذلة روحي، قلتُ سترجع، أعرف أنها مثلي تعيش في وجع، يضربني كرباج ثقيل منذ الاستيقاظ من النوم ويلازمني بالجلدات طوال النهار، يحفر الثقوب في الصدر، ويترك المعدة على حد زجاجي، يتحوَّل إلى قالبٍ مِن الثلج يعتصر روحي ليلًا، أقف في الصلوات هاذيًا وباكيًا، أقولُ: «أعدها وخذ ما شئتَ، لكن هذا الوجع ثقيلٌ»، ألصقُ ظهري لجدران البيت، أحتمي بها وأقول: «ابتلعيني ولا تتركيني للأعين، الأعين تركض خلفي وتنهش»، يمتلأ كتفي بقشرة الطلاء

fb/mashro3pdf

والرطوبة ويتقرَّح ظهري، فأدفن وجهي، وتُدلِّك الجدران خدي، وتترك علامات، ليس لي إلَّا الجدار: أحكي وأشتكي. عادت سلمى في أول إجازة، أنجبتْ طفلًا، كانت تحتضن أفراد العائلة وتبكي، تشتكي للجيران من وجع الغربة وألم البعد: كنتُ أتلذَّذ بسماع الشكوى، ومن جديدٍ ولجتُ باب الحياة بالرغم من تجاهلها لي وعينيها التي تنكرني في المصادفات، العين التي تهرب إلى وجه الطفل بين كفَّيها كلما اصطدمنا أثناء الدخول أو الخروج من الحارة، تهرب أثناء تربُّصي بالرؤية، أثناء صداقتي للأبواب والشبابيك، تصالحتُ مع الواقع، وقلتُ سأكون أبًا للطفل لما تعود، سأعامل ابنك أفضل من أبيه يا سلمى، عدتُ مُتلهِّفًا إلى الشبَّاك: أترقَّب نزولها مِن بيت أبيها إلى الشارع، أتسلَّل إلى البيت كما فعلتُ مرارًا أثناء الغفلة والجفوة في سنوات المحبة، أقفز إلى الشرفة، وأدفع الباب الذاوي من أثر بعاد سلمى، أصل إلى كومة الملابس المتسخة، آخذ ما تطوله يدي مِن ملابس محملة برائحتها لأعرف كيف أنام: رائحتك يا سلمى ذهبت عن سريري عامًا كاملًا، وابتلت المرتبة بأرق ودموع ومَنِيٍّ عوضًا عنها، لا أنام إلا برائحتك عند الوسادة. كانت تقبل أهلها وتنتحب في الوداع وأنا أقف في الشبَّاك وأنتحب وأضحك، سافرتْ من جديدٍ وأنجبت الثاني والثالثة، عادتْ في إجازةٍ أُخرى: كانت ملابسها منتهكةً بسوائل ذكورية: لعاب وعرق مالح ومني، ذهبتْ سلمى عن أقمشتها، لا شيء إلا رائحة

fb/mashro3pdf

الطبيب، معبأة بمزيج من روائح الدم والمطهرات والمخدر الطبي. كنتُ أستعير ملابسها قطعة بعد قطعة ولا فائدة. أعصر حمَّالة اليمام وورقة تين العانة بأنفي ولا أثر، فقط علامات المِبضع تحفر في النسيج. صادفتْني عند مدخل الحارة، لم ترتبكْ، ومنحتني «صباح الخير يا يوسف»، خرجت الكلمات ببساطةٍ واعتياديةٍ مِن جارٍ إلى جارٍ، كدتُ أُجنُّ، صرختُ لجدران البيت: «صباح الخير! يا بنت القحبة لو كان لي ذيل لهززته عند رؤيتك»، كنتُ ألتصق بالجدران، أحتكُّ وأحتضن وأقول: «واحد في المئة ظالم، دخلتُ كلية العلوم، ولم ألحق كلية الطب مثل حابسك بسبب واحد في المئة ظالم»، كنت مقهورًا، لكنه كان ندائي الأوَّل لأبنائي الملوك، ضبطتني ثناء أتشمَّم موضع حذاء سلمى على الدرجات، ألحسه، أتذوَّق وأبكي بالحنين الطازج، مِن يدي جرَّتني ثناء إلى البيت، غسلتْ وجهي، ضمتني، بكتْ فوق بكائي، وقالت: «يكفينا فضائح يا ابن المدهش».

رجعتُ إلى أبو عبده، كان الرَّجُل ينقل بضاعته مِن فوق الرصيف إلى داخل المحل، أطفأ الأنوار الخارجية، وقبل أن يسأل، أخبرته أنَّ المستأجر أجبرني على تناول الغداء معه، يقدر العِشرة ويتفهَّم الأمر، وفي غضون أسبوع سيترك البيت، أطرق برأسه قليلًا، قال: «جهزتُ المكان، سأقفل مِن الخارج، وأرجع في الصبح بالإفطار». دخلتُ إلى الدكَّان، كان ضيقًا من

fb/mashro3pdf

الداخل، لكن أبو عبده أزاح البضاعة في الزاوية أسفل الحوض، ووضع على الأرض مرتبةً ووسادةً نظيفةً، وبجانبهم طبليةً صغيرةً. تعجَّبتُ مِن كرم الرَّجُل، وشكرتُ صنعه في سري، ودَّعني، وأنزل الباب، وسمعتُ صوت انغلاق القفل من الخارج، أطفأتُ المصباح الصغير، رقدتُ، كنتُ متعبًا، ولكن النوم بدا صعبًا برغم الإرهاق الناتج من ضربات اليوم. في ظلام الدكَّان كانت عفاف تَحضر أمامي، ترتدي الفستان الأبيض، وتتأبط ذراعي مثل ليلة الدخلة، تسير إلى جواري في الفرح بلا طبلٍ أو زمرٍ، خلفها بنتٌ صغيرةٌ ترفع أطراف الثوب عن الأرض، وعفاف تُباعد ما بين ساقيها بشكل مضحك، والناس يتهامسون على العروس التي تسير مفشَّخة، المصابيح الملونة تزين واجهة ومدخل البيت، وتستمر خيوط النور حتى سطح المنزل المغطى بصوان، وعفاف تستند على الجدار بين درجة وأُخرى، تبدو موجوعةً، وتزيد من البعاد ما بين ساقيها والناس تتغامز وتتساءل أكثر وأنا مُحْرَجٌ، أشدها من يدها وأقول: «مالك يا مفضوحة!»، تجلس على الكرسي باهتةً وساقاها منفرجة، كأنها تدعو المعازيم للدخول. انتهت الليلة، ورحنا إلى البيت الجديد الذي استأجرتُهُ جوار منزل أبيها، رقدت عفاف على الفِراش، باعدت ما بين ساقيها وهي تتوجَّع، كنتُ أعرف أن مصيبةً على وشك الحدوث مِن أفعالها الغريبة؛ اتسع مهبلها حتى صار مثل باب كبير، يكاد يبتلعني ويصيبني باليأس

fb/mashro3pdf

من المحاولة، باب ينبع بالضوء، يطلُّ منه أسد ضخم وملبد، يخرج من باب العانة وينظر، قلتُ هالكٌ لا محالة، ووضعتُ عيني في الحائط، كان الأسد يزأر خلفي ويتشمَّم الرقبة والظهر، وأنا أعرف الآن لماذا كانت مفشَّخة طوال الليل، الأسد يقف بيني وبين عفاف، تضحك وأنا مبتل وخائف، والأسد يضع وجهي في الحائط مثلما فعل الأستاذ علاء. توقَّف الزئير، وخرجتْ آهات عفاف؛ كنتُ ألتفتُ، وهي تُضاجع الكائن الأحمر أمامي وأنا أتفرَّج، انتبه لي؛ ففرّ بسرعةٍ إلى داخلها، قلتُ: «يا عفاف أحدهم يجلس في داخلك، يسدُّ عليَّ الطريق ولا أقدر»، تدلَّى لسانه مِن عانتها، لعق ذَكَري المتهيَّج ودخل من جديد، كان يضحك ويشير بيده من الكُس، قالت: «هو سيدي وسيدك ولا حيلة»، قالت: «ترجَّ»، كنتُ أبكي وأرجوه: «اخرج ولو قليلًا حتى أدخل بامرأتي، الناس ستأكل وجهي»، مدَّ يديه وتناول ذَكَري، كان يجذبه وأنا أفر من يديه، قالتْ: «يريد أن يستند ليخرج، فأطع»، تركت له ذَكَري، أخرج يده الأُخرى مضمومةً وأحاطه بها، كان يدسُّ النمل في ثقب ذَكَري وأنا أصرخ، جريتُ إلى جدران الغرفة والتصقتُ فيها من الرعب، ألطمُ ذَكَري في الحائط والنمل يخرج من عانتي كطوفان، كنتُ أرتجف، ناديتُ سلمى وأنيسة، حضرتا أمامي على الحائط، وانطلقتا حولي في الظلام، كل واحدةٍ تُشير بالأصابع إلى صدرها كأنها تقول «أنا»، دلال ولعب وضحك؛ والنمل يهرب إلى الجحور، حركتْ أنيسة

fb/mashro3pdf

كفها دائريًّا في الهواء، ورسمتْ شكلًا كرأسي، ثم وضعتْ لها أذنًا وفمًا، لعقت بلسانها الأذن، تُدخل طرف اللسان وريقها يجري بالحروف من الأذن إلى الرأس، اهتزت الرأس من البهجة، تضحك وأضحك معها، وأنيسة تمسكها بين الكفين لئلَّا تقع من الاهتزاز، كشفتْ أنيسة عن ثديها ودسَّت الحلمة في الفم، رضعت الرأس بنهمٍ، كنتُ أمصُّ الهواء بفمي معها، كانت الرأس جائعةً جدًّا، بخطواتٍ متشنجةٍ اتجهت سلمى إلى الرأس، وضعتْ لها عينين ولسانًا، رفعتْ ثوبها إلى الفخذين، تلاعبتْ بأصابع قدميها الملونة بطلاء الأظافر، ضحكتْ بغوايةٍ، كانت الرأس تُعافر بين كفَّي أنيسة، تريد أن تلتفت وترى، تريد أن تقفز باللحس على الساقين. أمسكتْ سلمى ربلة ساقها بدلع، وعصرت: خرج نبيذ أحمر، خطٌّ ينسال من الساق إلى القدمين، طوَّحتْ قدمها في الهواء: تبعثر النبيذ، طارت قطرات إلى الشفاه المتلهفة بين يدي أنيسة، كنتُ أحس بمذاقه في فمي، بينما انتصب ذَكَري وسحبني تحت قدميها، أُوزِّع فمي بين العانة المزهرة ونبيذ الساق والقدمين: بكت أنيسة، كانت تحاول جذب انتباه الرأس إلى الحلمة، قذفتْ دموعًا فوق ذَكَري فانطفأ، كنتُ متكئًا على يديَّ وركبتيَّ بينهما، تائهًا ولا أذهب، كانتا تختفيان، تزولان على مهلٍ، بينما خرج النمل من ذَكَري المنطفئ مَرَّةً أُخرى، مؤلم ويندفع في أسرابٍ كثيفةٍ تسدُّ الثُّقوب، الأُذن والعين، الفم والأنف والشرج، كنتُ مسدودًا

fb/mashro3pdf

وأتخبَّط في الجدران، أحاول أن أُنادي على مغيثٍ والفزع يركب روحي، ارتطمتُ بالبضاعة ووقعتُ، كان النمل يتكالبُ فوق ظهري ويكتم أنفاسي بثقل الجحافل المهولة، يأس، عذاب بطيء، لا هواء؛ فتركتُ لهم نفْسي وقلت: عذاب أخير بعده راحة، لكني أحسست بالهواء يندفع إلى صدري من جديد، وثقل النمل يزول، تسرب صوت من بعيد، كان ثقيلًا وبطيئًا على حواسي المسدودة، كان النمل يبتعد، يهرب إلى شقوق الأرض؛ زالت السدود، وفتحتُ عيني بصعوبة؛ كان أمامي فارس ضخم، في ظهره نبتت أجنحة عملاقة متداخلة الألوان، حول خصره سيف فضة ودرعه من ذهب، يجلس فوق ظهر حصان أسود بلا سرج أو لجام، ويحيط به النور كفقَّاعة محكمة، خلفه الجدار مشقوق وينكشف عن سهول خضراء لا نهائية، وبدرٌ بهيٌّ يتوسَّط اللوحة. بهدوء نزل عن الفرس، كان يسير مرتفعًا عن الأرض، يسبح في الهواء بقدميه، كنت أرتجف قَلِقًا، وأسأل: «ماذا حملك على المجيء يا بهاء الزمان ووحي المسافات؟!»، لم يرد، نظر إلى عيني، عاودت سؤاله: «لماذا ليستْ رسالة عبر الجدار!» أمسك يدي، ضغط بقوة، وضع يده الأخرى على كتفي، سألته: «هل تسير الأمور كما تودون؟»، هز كتفي بشدة؛ كنتُ أتلخلخ عن الأرض، قال بوجه صلب: «هل وصلتَ إلى اليقين؟»، لم أجبه، بكيتُ بين يديه ورحت في النوم.

fb/mashro3pdf

كان ضوء الشمس يضرب عيني، وأبو عبده يدفع الباب إلى الأعلى، غسلتُ وجهي، بينما أخرج بضائعه، ونصب الكرسيين والطاولة فوق الرصيف، أخرج الطعام مِن أكياسٍ، ووضع أمامي علبة دخانٍ، ابتسم وقال: «فول بالثوم وطعمية وبيض مقلي في زبدة وباذنجان وطورشي بيتي مثلما تعودتُ من يد أمي كل صباح، وحتى بعد الزواج كانت تجهزه وتأتيني به». كان يبدو مرهقًا وذابلًا. كدتُ ألوم نفسي؛ وتوقَّعتُ ملاعبة عفاف للرَّجُل ليلًا جزاء مساعدتي. أعرف أنها تحاصر مَن يساعدني، أجهزتْ على أمي وأبي، وحتَّى الغريب، الذي رقَّ وأعطاني ذات مَرَّةً أُجرة المترو؛ لأصل إل سلوى، أوقعتْهُ تحت عجلات القطار. لكن أبو عبده أنقذني من الظن، وقال: «لم أنم بسبب تليفون طويل مع الولد أحمد، تعبَ من الغربة ويريد الرجوع، مشاكل في العمل». تمنَّيتُ له التوفيق، ضحكَ: «الولد أحمد غير بقية إخوته، أبي مَن سمَّاه، تطلَّع أبي إلى وجهه لحظة ميلاده، وقال لي يا سيد، هذا الولد حرونٌ، هذا الولد عنيدٌ ويحبُّ البعاد. أمي كانت المشرفة على ولادته أيضًا مثل بقية إخوته، قالت الولد نزل في (برنص)؛ ابن سعد فافرح يا سيد. تُلازِم إشارات السعد ميلاد أبنائي بيد أمي المباركة، عبد الله وُلِدَ في ليلة القدر، والبنت نرجس كانت في ليلة بدر كامل ليس له نظير والقرية تضحك، بنت منفوحة على اسم الحبيبة أمي، تنظر في الصفحة مَرَّةً واحدةً، فتقرأها لك غيبًا. عندما كبرتْ وراحتْ

fb/mashro3pdf

إلى الجامعة. كنتُ أتتبعها خلال أول أسبوع. الواحد يخاف من فتنة الزمن على البنات بالرغم من حُسن التربية، ربيتُ بالصبر. والبنت كانت أولى دفعتها، وصارت معيدة في القسم، ليس أسعد في العمر من حفلة تخرجها والأساتذة يُجلِّون الأب، ويعرفونه بأخلاق البنت وعلمها. قلتُ برّي بالأب والأم أحصده الآن، لدي ثلاثة ذكورٍ ناجحون، ولكن نجاح البنت بالدُّنيا وما عليها، وأنا -ولله الحمد- نلتُ بزوجتي من الدنيا أحسنها كما يقول نبيك الكريم: {من بركة المرأة على الزوج تيسير مهرها وتيسير رحمها}، فزوجتى ابنة عم، وارتضتها لي أمي، وتعبي معها كان قليلًا؛ مرة حينما ألحتْ على سفري خارج البلد لطلب العيش، وذهبتُ مرغمًا تاركًا رعاية أبي وأمي للغريب، والأُخرى في تربية الولد أحمد الذي كان يحب العزلة، ويقطع فجاج الأرض كما لو على ظهره عدَّادٌ يَحْسِب، يختفي عن البيت بالأسابيع ويعود، نسأله أين كنتَ وكيف عشت؟، فلا يرد، يبيتُ أيامًا في وسط الغيطان، قرأنا عليه ولم يزل برَّانيًّا، قلتُ لأمي الولد مفقودٌ ولاسيطرة لي عليه، وقالت أمه مندوهٌ بجنيات يخرجن من شقوق الأرض؛ وحارتْ بين محتالين يعملون للولد الأحجبة وأوراق طلاسم؛ غضبتُ وقلت لها في الأُولى أتعستني مشورتك بهجر أبي وأمي، لكن في الثانية كفر يا بنت عمي، كلماتي كانت كافية لتهجر أفعالها، فلم أمد يومًا يدي على امرأة، وتعلَّمتُ كيف ألصق البنت والزوجة لطوعي

fb/mashro3pdf

بالنظرة قبل الكلمة. كنتُ أعرف أن حالة الولد أحمد تُشبه قريبًا لنا في البلد تُوفي قبل وعيي بالعالم، ولكن أبي حكى لي عنه وعن زوَّارٍ مباركين يجيئونه ويمنحونه العِلم؛ حتَّى صار أعجوبة لزمانه. لكن في ليلة برد شديد، يقضيها الخلق تحت الأغطية وأمام الراكيات، تفقدتُ الولد في فراشِهِ فلم أجده كالعادة، لكن العادة لا تمنع القلق في ليلة كتلك، أشعلتُ قوالح الذرة، ووضعتُ المعسل للمزاج والتدفئة وتمضية الوقت. قبيل الفجر، وجدنا طرقًا شديدًا على الباب؛ سقط قلبي فوق الموقد، وانتظر الخبر المر ليحترق، وصحا البيت مفزوعًا، وجدناه، أحمد، كان سليمًا؛ فتحرك قلبي عدة أشبار بعيدًا عن القوالح المشتعلة. كان وجه الولد أصفر، مضطربًا ويتلفت حوله في خوف، يمسك شتلةً مضيئةً بين يديه، نور أبيض صاف، طاقة تندلع، تهرب العيون من جبروتها، شتلة تنير البيت بوهج شموس؛ كأنك في عز النهار، شيء لم نعرفه أو نره من قبل. كان يلهث، أنفاسه متقطعة، يهذي، يقول لقد أعطوني إياها، يحتضن النبتة ويصرخ أخذت سر الأرض بعلومهم البعيدة عنكم بعد معافرة وصلتْ إلى الرضا، قالتْ أمه ألقِ ما في يمينك إنها الجن والعياذ بالله، صرخ بل هو مبلغ العِلم، وليس بعده يا ناس! كان يهرع إلى غرفته ويغلق الباب من خلفه، ذهبتُ وطرقت الباب وحولي أمه وإخوته، أقول له أرني هذا النور يا ولد، أمه قلقة وأنا يأخذني فضول يغلب

fb/mashro3pdf

قلقي، لكنه لا يرد، وبعد وقت خرج إلينا من الغرفة كالطالع من السحر، لا يتذكر ولا يتكلم، ولا أثر لنبتة الضوء تلك. هدأتْ أحواله، ودخل إلى كلية الزراعة ولم يك جادًّا كإخوته، تخرَّج بطلوع الروح، لكنه يزرع الفدان فتأكل منه البلد وأهل البلاد المجاورة ويفيض، ذاع صيت الولد، كان يقول لأساتذته: أسلموني مصر، وفي ظرف سبع سنين يأكل من خيرها العالم، يا ناس!، يا خلائق!، العزيز عِلْمي؛ فأدركوني قبل أن تفقدوني. حاربه الأساتذة وتجَّار السماد والمستوردون؛ فأكمل سفره الطويل؛ ليجد أرضًا تشرب علمه».

انتهينا مِن الإفطار، واستأذنتُ أبو عبده في الذهاب، أردتُ رؤية سلوى، بعد أن تركتها تذهب إلى العمل وحيدةً لأوَّل مَرَّةٍ منذ عرفتُها. قال أبو عبده: «سأنتظرُكَ في الليل، احرص على روحك، وبودي لو تبيت في البيت معي أفضل لك من الدكَّان؛ فالبيت واسع وخالٍ»، شكرتُهُ على كرمه، وأكَّدتُ أن الدكَّان مريحٌ، ولا أُريدُ إزعاجَهُ أكثر مِن هذا، ويكفي ما يفعل ويزيد. كان النَّهار في أوَّلِهِ، ولا زال أمامي وقتٌ حتَّى موعد سلوى، ضربني الفضول؛ فقلتُ أذهب لأرى ماذا تفعل القحبة في غيابي، ولو بالتلصُّص مِن أمام باب الشقة. كنتُ أصعد الدرجات في حذرٍ، وأخاف أن ألتقي بأحدٍ مِن أهلها يطلُّ عليها في الصباح مثلما تعوَّدوا. ألصقتُ أُذُني على الباب لفترةٍ، لم أجدْ صوتًا، تشجَّعتُ؛ قفزتُ مِن شبَّاك المنور المطل على السلم، وتعلَّقتُ

fb/mashro3pdf

على أعمدة الصرف. دفعتُ نافذة الحمام، كان الجو هادئًا، بينما رائحة كريهة تضرب أنحاء البيت، تبعث على القيء، كانت الغرفة مظلمة، اقتربتُ بحذرٍ، ورأيت عفاف مستلقيةً على السرير، والكائن لا يزال يتأرجح فوقها مثل الأمس، بينما الأسد يتجوَّل في الغرفة حولهما للحماية، لم أشعر بروحي: أسلمتُ قدمي للريح حتى أول شارع المطراوي أمام محطة المترو، وقفتُ ألهثُ، قلتُ: «الفضول قتل القط يا غبي، لا تعدْ إلى هناك وإلَّا تهلك». أخذتُ تذكرةً، وقلتُ أقضي الوقت بانتظار سلوى على الرصيف أمام محل عملها، وأتفرَّج عليها مِن وراء الزجاج وهي تعمل، كنتُ أستمتع برؤيتها وهي تعمل وتتنقل بخفةٍ بين الملابس. عندما توقف المترو في محطة كوبري القبة، لمحتُ بدرية تصعد إلى العربة، لم أعرفْها لأول وهلةٍ؛ كبرت الشجرة، تضخم الجذع وتهدَّل، وأبناؤها صاروا حشائش عاليةً ومتفاوتة الأطوال، يتناثرون حولها ويحجبون التشوُّه. تهلَّلَتْ لما رأتْني، جلستْ أمامي، بوجه القحبة المكشوف سألتْ عن الحال وتصاريف الحياة، وأين أعيش والأبناء. قالتْ ذاهبة لزيارة أمي في السيدة، وظلَّتْ ترغو في أذني ولم تُشرْ للحادثة أو للقديم، لكنها أشارتْ بيدها على كل ولدٍ وبنتٍ ولفظتْ اسميهما، ثُمَّ أشارتْ بذقنها على الرَّضيعة التي بين يديها، وقالتْ: «آخر رزق». كانت تضحك بميوعتها القديمة، قالت: «العيال كلهم ما عدا أحمد الكبير، أنت عارفه، أحمد اللي من جوزي الأول، بقا

fb/mashro3pdf

أطول منك دلوقت، البقية من التاني: الرَّاجل مفيش حاجه بتهده». ناولتْ ثديها للرضيعة مثل أول مرَّةٍ، كانت الصغيرة تمصُّ بنهمٍ، تقع الحلمة من الفم؛ فتهيجُ وتتعصَّب حتى تَلقفها من جديد، والثَّديُ مُتدلٍّ كموزةٍ فاسدةٍ بحلمةٍ سوداء وضخمة من أثر العدد اللانهائي لشفطات العيال ومداعبات الرِّجال، ممتلئ بنتوءات كأنها كفوف تدق من الداخل، كنتُ منتبهًا للثدي؛ أرى محمد صابر محبوسًا داخله، يحاول الخروج من فتحة الحلمة؛ فيرتد، يَنقلبُ ويحشر رأسه، يدقها في حلمة بدرية لتسحبه الرضيعة بقوة المص، تنسحب رأسه خلال الحلمة، يتعصر، وتتشوه الملامح، لكن ما أن تبرز الرأس متطلعة مِن حلمة بدرية؛ إلَّا وتتوقَّف الرضيعة وتقع الحلمة من فمها؛ فينزلق من جديد إلى الداخل، كانت محاولات مستمرة بدأبٍ وبلا أملٍ في الخلاص، يدقُّ بيديه للخروج من الحبس، تنزف رأسه خلال الشفطات الهائلة، والرضيعة تشرب دمه ودموعه، كانت البنت تخبط الثدي بكفوفها، تلعب؛ يهتز الثدي، وصابر يرتجُّ في الداخل ويبكي، أشار على المقعد الفارغ جواري، أشار إلى حذائي وفمه، يصرخ ويقول لي: «ضع حذاءك في فمي؛ كي أسكت»، كان يتقافز داخل الثدي، يرجو ويتوسَّل، أشحتُ بوجهي ملتفِتًا إلى النافذة، لكني وجدتُهُ جالسًا إلى جواري، كما كان من عشرين سنة، جامدًا كلوح، وقابضًا على حذائه بين الأسنان، يجزُّ عليه؛ ليمنع عن فمه الكلام. منذ

fb/mashro3pdf

عشرين سنة كنا صغيرين، أجلس في الترام جوار صابر، الترام يقطع سكة الوايلي، ويشقُّ شارع بورسعيد، نهتز، وبدرية تجلس قُبالي، تحاول أن تُلقم الثدي للبكري أحمد، والولد رافضٌ للمحاولات، ومع كل رفضٍ، تنظر تجاهي وتضحك: «هتاخده ياواد ولا ياخده عمُّو»، ارتبكتُ أمام الجرأة، بينما بادرها محمد صابر: «يا ولد خلص.. لو مش هتاخد البزقولي عشان أخده قبل ما تنزلوا». تحولتْ بدرية إليه، تناستني، لم تعد تنظرني؛ أدخلني ابن صابر إلى الفقَّاعة بلسانه الحلو وردوده السريعة، نزل معها صابر في المحطة التالية، كانت متعته التي سرقها مني الخوف، يُحدِّثني عما يفعل معها، ومعاملته لها كزوجةٍ في الفراش، ووصف بدرية لقضيبه بسابق سنِّهِ؛ فتشتعل خيالاتي المخلوطة بالحسرة مع ثقب المرتبة، يحكي للعيال؛ فيفضح خيبتي، وقلة الرجولة، يصحبني أحيانًا بعد محايلات من جانبي لنزهاتهم سويًّا في مقابل تحمُّلي لمصاريف اليوم، كنتُ أُراقب بشغفٍ؛ أُريد أن أعرف ماذا يفعل صابر مع الحريم، لكن أبلة نوال لم تتركني لتلك الحسرة طويلًا، بل أركبتني فوق حسرات أغلظ، حسرات تدخل بي ليلًا في جدران الغرفة والمرتبة. كانت أبلة نوال واقفةً أمام باب الشقة، ملابسها الشفافة تسدُّ عليَّ الزوايا باللحم الأبيض، قالتْ: «ليه بتعيَّط يا يوسف؟ هو المدهش ضربها تاني». تناولتْ يدي، ومسحتْ دموعي بالكف، أدخلتْني إلى الشقة، أجلستْني

fb/mashro3pdf

على كنبة بلدي عليها مرتبةٌ قطنيةٌ ملاصقة للجدار المواجه لمدخل الشقة في صالةٍ ضيقةٍ، أغلقت التلفزيون الموضوع على طاولة مصنوعةٍ من جريد النَّخل، بجانب باب الشقة، وأغلقت الباب، بينما تتصاعد روائح وأبخرة الغذاء مِن فتحة المطبخ أمامي، وصوت قطرات المياه المنسابة فوق حوض صغيرٍ بجانب باب حمَّامٍ خشبيٍّ مطليٍّ بلونٍ أزرق متآكلٍ. جلستْ جواري، قالتْ: «عمك محمود في شُغله يا حبيبي». كانت ملتصقةً بجسمي، كتفها وفخذها يحاصراني، مدَّتْ يدها على ظهري تُربِّتُ وتتحسس، قالتْ «إيه حصل المرة دي؟»، أطرقتُ في الأرض، قلتُ: «ربط يديها بحبل الغسيل في ماسورة المطبخ وضربها، سحبها على الأرض، ورماها قصاد الباب». قالتْ: «يا حبيبتي! تنقطع ايده، يعرف ربنا وبيصلي إزاي؟ والنبي لما سمعنا صوتها، كنت عاوزه آجي وأعرَّفُه شُغله، بس عمك محمود قال بلاش؛ المدهش عنيد، والموضوع ممكن يكبر بسببنا». رفعتْ قدمها، وأسندت الكعب على طرف الكنبة؛ انزلق الثوب لبدايات الفخذ، ودخل اللحم في روحي، استفسرتْ: «وهي فين طيب؟»، قلتُ: «راحت عند صاحبة قديمة في الوايلي، بنت أم سعاد لو تعرفيها». كانتْ يدها تدخل من تحت ملابسي إلى سطح ظهري وتمس بنعومة، ترتفع إلى أعلى ببطءٍ، وتنزل إلى المؤخِّرة. تقرص المؤخِّرة بخفةٍ، بينما الأُخرى زحفت إلى فخذي تُربِّت، ثُمَّ انسابتْ إلى ذَكَري، كانت تتلمَّسُهُ وأنا مأخوذٌ. قالتْ:

fb/mashro3pdf

«آه. عارفاها. بس كانت تيجي هنا بدل المشوار». كانت أصابعها تقرصُ رأس عضوي قرصاتٍ متتابعةً خفيفةً وأنا دائخٌ. «حبيبتي ملهاش أهل يلموه، مقطوعة من شجرة، لما كان بيعمل كده زمان كنا بنقول لسه صغيرين، لكن كبر وعنده رَاجل في البيت ما شاء الله طول بعرض». أزالت الأزرار، ونفذت الأصابع تمسُّ مُقدِّمة عضوي، تحتويه باليد، تمس الخصية، تسحب الكيس برقة لأعلى وتضغط برفق تحتها؛ فيسري الدوار والكهرباء في روحي: «ولَّا أنت مش رَاجل لسَّه». اقتربتْ بوجهها من وجهي، كانت أنفاسها تدفع ذَكَري للقفز بين يديها، وعيناها تبتلعان روحي، كان عضوي يبكي بدموعٍ لزجةٍ على الكفوف، أبعدتْ يدها عنه، همستْ «ايه؟ احنا مش زي البت سلمى يا واد؟». ضحكتْ وأنا أخرس وتائه في عذابٍ لذيذٍ، كانت الشهوة تقتلع روحي، أريد أن أقول لها أنت ست الناس، وأنا خدَّام تُرابك، لكن لا تتركيه. قالتْ «يا واد خالتك نوال عارفه كل حاجه في الشارع، كبرتْ وبتحب يا يوسف». لامستْ عضوي بحنيَّةٍ من جديد، قلتُ: «آه». أبعدتْ يدها عنه، رفعت ساقيها على الكنبة، اتكأت على المرفقين والركبتين ونظرتْ، كانت مؤخرتها مرتفعةً كجبلٍ صعبٍ، وأنا أتمنى الاحتراق في الحمم داخل فتحة البركان، فخذها المشدود يأكلني، وثديها يتدلَّى ويرتجُّ بروحي، أبعدتْ خصلاتٍ من شَعرها ساقطةً على الوجه، غنجتْ وهي تمدُّ يدها وتلمس من جديد بينما تتَّخذ وضع

fb/mashro3pdf

حيوانٍ مُهيّجٍ: «أنا أحلى ولا هيَّ؟»، أزاحتْ يدها. كنتُ أنفجر، سائلي يندفع، ويدي تمسك ذَكَري النابض في الفراغ: «أنتِ أحلى واحدة في العالم، بس أبوس رجلك امسكيه». كانت تضحك وتتفرج، يديها أسفل ذقنها، أنتفضُ وهي تسند رأسها وتتأمل، همدتُ وأسندتُ رأسي للجدار، أغمضتُ عينيَّ: فوجدتُ الشيخ حسين يتطلّع من الجدار المقابل فوق التلفزيون، بكيتُ ونهنهتُ، بينما وقفتْ نوال، وذهبتْ إلى المطبخ، أطفأت النار تحت أواني الألمونيوم وأتتني بخرقةٍ قديمةٍ، قالت: «امسح ياخول، له حق يفضل يضربها». مسحتُ المنيَّ عن عضوي وملابسي، أغلقتُ البنطال، كنتُ أتباطأ باتجاه الباب، خطواتي تماطل في سبيل كلمةٍ تواسي كرامةً منتهكةً، أو تغيير في مسار الحدث في لحظة أخيرة، كتفي محنيٌّ، ووجهي في الأرض، ولا أستطيع النظر إليها، قالتْ بصوتٍ جامدٍ: «مع السلامة يا واد يا يوسف، ولمَّا أُمك ترجع بلَّغها إني سألتْ».
عادتْ ثناء إلى البيت يوم جنازة محمد صابر. نسى المدهش أمر طردها مِن البيت تحت وطأة الذهول، بعد العزاء بكى بحرقةٍ، قال: «الولد صغير وأبوه تساوى بالأرض من الحزن، ذلك أمر الله، لكن الولد مات مفضوحًا وكان صاحبك القريب، زوج المرأة وجده فوق زوجته، هربت الملعونة التي سحبتْ طفلًا لجسمها وأنكرتْ، والولد صغير ولم يصمد أمام ضربات الرَّجُل، رأينا وجهه؛ تهتَّك تمامًا، إنا لله وإنا إليه راجعون».

fb/mashro3pdf

تركتُ بدرية دون سلامٍ، نزلتُ إلى محطة جمال عبد الناصر، كانت رأسي ثقيلةً وغيرَ مُتَّزنةٍ، تتطوَّح إلى اليمين واليسار، أكاد أسقط، أُذُني كبيرة مثل رغيف ومتدلية، ترتطم بكتفي مع الحركة. جلستُ على مقعدٍ في المحطة، التفتُّ بوجهي وأسندتُ أُذُني للجدار. كان تضخم أُذُني منحةً مِن الملوك، وعلامةً على رسالةٍ قريبةٍ، في دقائق الانتظار كنتُ أكتشف الأحاديث والهمسات حولي، تتداخل الأصوات ولا أقدر على التمييز، أصوات بعيدة وقريبة، صخب موجع، ووشوشات ناعمة، لكني -مع الوقت- تعلمتُ أن أُغلق عيني، وأبدأ في تمييز الأصوات: كان عاشقٌ يتهامس بجمال ثدي البنت على الرصيف المقابل، يرتعش ويُمنِّي فمه العطشان بمصةٍ واحدةٍ. ورَجُلٌ يتحدَّث مع زوجته في الهاتف عن عضوه المتألم بالتشرد خارج المهبل. خارج المحطة، كان صخب البائعين وتوسُّلات للزبائن بالشراء من أجل استكمال الجري على الصغار، ورَجُلٌ يسبُّ الحياة والأبناء الذين تكتَّلوا فوق كتفيه. واحدةٌ تلم عيالها المنثورة فوق الرصيف، وتلعن الأب المسافر، والطير يحمل الأكل للأفواه الشرسة في العش، بينما يُنادي على طلقةٍ تُخلِّصُهُ مِن العذاب الدائم ولا يقدر على الهبوط بجناحيه للنهاية نحو الشبكة؛ كانت الحياة الجديدة تسلب الحياة القديمة على مهلٍ، وبعذاب العارف بالنهايات. سمعتُ ضفادعًا مدفوعةً بالنقيق نحو نهايتها، وضحكات أطفال عالية:

fb/mashro3pdf

تستعملها الحياة الجديدة كمصيدةٍ للأهالي المتعبين لمواصلة التعب. كان حجم أُذُني يزيد: تخترقني أصواتٌ مُعلَّقةٌ في الفضاء منذ زمنٍ بعيدٍ، اخترقني صوت أبلة نوال وهي تأمرني أن أحضر لها الخبز وطلبات المنزل، تضحك وتقول: «شيء تنفع فيه يا يوسف». اخترقني صوت عفاف وهي تئنُّ في شقوقها، تُكلِّم أسيادها طالبةً الرحمة، تقول: «لماذا جعلتم حظي كالحجر؟!». صوت ثناء وهي تتوسل للمدهش بتخفيف الضربات من أجل العِشرة والولد؛ لأنَّ روحها ستطلع. أنيسة وهي تبكي، وتقول: «أريد ولو سنة واحدة من الحياة، مريضة ولا شفاء يا سيدي!»، أبلة نوال وهي تأمرني أن أحضر مداسها من أسفل الكنبة أمام عيون الحبيبة سلمى. سلمى الصغيرة وهي تصرخ فزعًا بين يدي، وموسى يتناولها ويقول: «سنأخذها لتعيش معنا إلى أن تهدأ الأمور يا يوسف، والله ندعو لكم أنا وحماتك بالليل والنهار». صوت محمد صابر وهو يصف طلبه الأول لمؤخرة بدرية، بينما ترد هي بتمرير كفها على عانتها الناعمة كجلدٍ رضيعٍ، تضحك وتقول نتفته من الأمام بضمير من أجلك، المس واركب من الجهتين. صوت المدهش متسائلًا: «كيف تعرف اسم زوج البنت وعمله»، بينما أردُّ بعين هاربة: «حكى لي محمد صابر الله يرحمه». اخترقني صوت زوج بدرية وهو يصرخ منهارًا في الهاتف: «يا ابن الكلاب. يا ابن الكلاب». اخترقتني حكايات المدهش وهو يتمنَّى الموت قبل ثقوب

fb/mashro3pdf

الذاكرة، وخوفه من الوحدة وحوله الأحباب. يفتح ذاكرته عن أبيه: «ذهبتُ مع جدك للحجاز، كانت أمنيته الطويلة؛ يجمع الفلوس طوال العمر في صندوق خشبي في غرفة نومه، يغلق عليه بالأقفال، ويضع عليه مرتبة صغيرة، وسجادة للصلاة ومسبحة. يُعطِّر الصندوق، ويعيش على الحافة، ويقول: من أجل زيارة بيت الله. جاءته الزيارة بعد ذهاب الصحة، وفي الطريق ظل يسألني: أين نحن ذاهبون؟ فأقول له: مكة يا حاج. يسألني: هل ستذهب بي لزيارة بيت الله يا ابني! أقول: نعم يا حاج. يقول: زادك الله من رزقه، لم تأت تلك الرعاية من ابني محمد، وجاءت من غريب طيب مثلك. أقول: أنا ابنك محمد يا حاج. يقول: إلى أين تأخذني يا محمد؟ فأقول: مكة يا أبي. يقول: لماذا؟ أُجيبُ: للحج. قال: وهل تعرف أمك؟ قلتُ: ماتت من سنين. يبكي ويقول: كانت تريد الذهاب معي طوال عمرها، شاركتني الحرمان، والله أريد الدعاء لها أكثر من أي شيء وأكثر من نفْسي. يسألني: ما هذه يا ابني؟ أقول: الكعبة يا حاج. يسأل: لماذا نطوف حولها والجو حار والنَّفَس صعب؟! أقول: نؤدِّي الفريضة. يدبُّ بقدميه في الأرض ويتوقَّف، يصرخ في الناس: أنا رَجُلٌ كبيرٌ لا تدفعوني، يبكي، ويقول: يا محمد ربيتك كما أقدر، فلماذا تحضرني لمكان يضربونني فيه يا أخي؟! يشير للكعبة ويقول: والله معه حق صاحب العمارة أن يسترها بالأسود مخافة أعين الناس الكثيرة حولها. يقول: تعبتُ يا رَجُل

fb/mashro3pdf

يكفي مشيًا. أقول له: ادع الله يا حاج. يقول: أدعوه في كل وقت، ولكني تعبان الآن. أحمله على كتفي وأطوف. أقول: هنا بيته، والدعاء مجاب. يرد: يا ابني ليس لدي مال لأفتدي نفْسي به، وعيالي ليس لديهم سوى الستر، فلماذا تخطفني؟! أقول: أنا أحملك يا أبي حتى لا تتعب من الزحام والمشي. يقول: بارك الله فيك، لم تأتِ من ولدي، والله أنت مثل ابني وأعز الآن». اخترقني ضحك المدهش بين ألمه وهو يتكلم عن الأشياء المتأخرة، الأشياء التي لا تجيء في وقتها الصحيح، يقول: «لو كان بيدي، لا أقبل أن آكل الفتات من الوقت بعد طول عمر. الوقت يمسخ الأحلام، تصبح حامضةً بعد الانتظار، تسحقنا الأحلام في المسافة، وتأتي حين نفقد الاستعداد، والذاكرة تخون الأمنيات الطويلة». يختتم المدهش كلامه برفع يديه، ويتعوَّذ مِن طول الأمل، والموت بعد العِلل. اخترقني صوت النمل في الجحور وهو يتآمر على ذَكَري، يخرج بصيحة عفاف، يضربني ويكتم الحواس. اخترقتْني صيحاتُ عذابٍ، وزفراتُ راحةٍ، مات أصحابها وبقيتْ مُعلَّقةً في الهواء. اخترقني صوت ملوك الزَّمان والمسافة في أول لقاءٍ: كنتُ مُتسلِّلًا إلى حجرة سلمى بعد تأكُّدي من غياب أهل البيت في الشوارع، ثيابها في الأنف وخدي على الجدار وأبكي، سمعتُ أصواتهم تدخل إلى عقلي من بعيد: «نحن أبناؤكم، وأنتم حقل تجارب للوصول إلينا، كلنا في دائرةٍ كبيرةٍ تأكل بعضها؛ في أجزائها الصغيرة،

fb/mashro3pdf

يظل الأبناء حقول تجارب للآباء، يتشكَّلون حسب رغباتهم وأخطائهم، ويساقون إلى مصائر من تشكيل الآباء. أمَّا على اتساع الدائرة؛ فإنَّ الأبناء يتحكَّمون، يوجِّهون الآباء بالمشيئة الحافظة. نحن نبرّكم بالتوجيه اللازم لأجدادٍ مُتعثِّرين، وفاقدين للرؤية، نرعى الإنسان مخافة أن يضل، نُعدِّل في مفاصل الوقت: لتنضبط الآلة. نسافر في أغصان شجرة الوقت وفروعها، نُعاقب مَن يأكل مِن ثمرتها ونال المعرفة دون إرادتنا، نمنح المعرفة فيمن نُحِبُّ وبما نُحِبُّ، لكن بالضوابط التي لا تُفسد حاضرنا، وتُورق نسلكم/ نحنُ. يقترب بعضكم من الحقيقة بحكاياتٍ مُسرَّبةٍ، ولكن الوقت حرَّفها، وعقولكم تضامنتْ، والزمان مِلك إشارتنا وأداتنا؛ فينادون ويقولون: «يا أبانا»؛ فنضحك ونرد: «نحن أبناؤكم، ولا ضير»، يقولون: «أنتم في الأعالي»، ونقول: «نحن نحيطكم ونخطو فوق موضع خطوتكم، وفيكم أهل الخطوة، ونحن سمَّاعون لهم»، حين بكيتَ يا يوسف؛ سمعنا نداءك، فمزّقنا الإنسانُ، وبكينا لأجله، تسمَّعنا محبَّتَك المغلوبة، وتذكَّرنا؛ فاتفقنا على التعديل في المسارات من أجل وهبة وحيدة تقيمُ الفرح، نحن أربابكم وأبناؤكم، فيكم تلدُ الأَمَةُ ربَّتَها منذ ظهور الإنسان، ولا تعرف. وفيكم يظل الإنسان خطرًا على الإنسان، ولن تنزعوا تلك الخطورة إلَّا عند أبوابنا. لذا نمنحكم ما يحفز ضوابط الأخلاق، ويُمنِّي أو يُخيفُ بحسب عقولكم الزمنية؛ لتصلوا

fb/mashro3pdf

سالمين بالحياة». كنتُ ألتقطُ ما جرى، بينما ضربتني الرسالة الجديدة، تتكرَّر بوضوحٍ وبنظامٍ: «اقتربت الساعة بما فعلتَ مِن فعلتِكَ التي فعلتَ». شعرتُ برأسي أخف، والأصوات تنعدم بالتدريج؛ تحسَّستُ أُذُني لأجدها عادتْ إلى حجمها. توجَّهتُ إلى سلوى، وذهبنا في طريق العودة. كان ظلها يحتضن ظلي على الأرض: فأرتاحُ. أمام بيتها ناديتُ على السَّائق: توقَّفْ ونزلتُ مِن العربة، انتظرتُ، كان الباب ينغلق أمامي، وأنا واقفٌ أنظر إلى سلوى التي ظلَّتْ جالسةً في مقعدها، ولا تلتفت، مضت العربة، بينما وقفتُ وحيدًا في الشارع، أتطلَّع في ذهولٍ.

***

سافرتْ سلمى مع الطبيب؛ ضاقت عليَّ الأرض. أُغلقُ باب غرفتي في الوجوه، أظلُّ طوال اليوم ملتصقًا في الشبَّاك، أنظر إلى بيتها، ومواضع خطوتها في الحارة. ركبتاي على الأرض، صدري على الجدار، ذقني مستندة على الإطار، ويداي معلقتان بالإفريز. يطرقُ قلبي على الحائط بقوةٍ، يسأل الملوك البعيدة: «متى؟»، ينزل أبوها إلى الشارع؛ أقفز من شرفةٍ إلى شرفةٍ حتَّى يحتك ظهري بجدران غرفتها، وعيني ببقاياها المتناثرة، أتشنَّج وأغيب، وأسمع أصواتًا تخرج من الحائط، أضع أُذُني على الحائط للوضوح؛ فأجد نهناتٍ مكتومةً بلا صاحبٍ، أعود لجدران غرفتي، وتحاول ثناء إخراجي من الغرفة بأيِّ طريقةٍ، تُقسم

fb/mashro3pdf

وتسدُّ عليَّ المداخل بجسمها، تأخذني من يدي للتمشية في شارع بورسعيد، تستند على ذراعي، وتحكي عن أسلافها: تحاول تخفيف الذكريات بالذكريات. اضحك يا يوسف، واترك الهم، كل شيءٍ نصيب، ولا أحد يعرف أين الخير! يا أخي الناس تهرب من الزواج والمسؤولية: زمان كان جدِّي كالطير، ينام طول النهار بعد السهرة، يبدأ يومه قرب المغرب: يستحم ويفطر مِن يد أمه، يلبس أغلى بدلة وطربوش، حذاؤه مثل المرآة، ونظافتُهُ كأولاد الأعيان، يفوح منه العطر الغالي وهو يعبر القنطرة فوق المياه التي كانت محلَّ الشارع هنا، تنتظره البنات في آخر النهار من خلف الشبابيك لتنال منه طلةً، وهو معجباني: يعرف ولا يهتم، تتنهد البنات وتهامس من خلف الجدران للجدران، يقضي الليل في المقاهي وتتبُّع المطربين والراقصات في وسط البلد، يعود في الصبح، وأحيانًا تمضي أيامٌ وشهورٌ ولا يراه أهله، ثُمَّ يعودُ فجأةً بحالةٍ صعبةٍ: مُنهكًا ومُتَّسِخًا وجائعًا، فتتناوله أمه كما تفعل مع الطير: تنظُّف وتحشر في جوفه، وأبوه يسبُّها ويسبُّ النسل الوسخ، لا يريد مسؤولية، ويهجر العمل بعد العمل، تزوَّج مُكرَهًا بضغطٍ مِن أبيه وبعد الخامسة والثلاثين، كان أبي يقول إنه جاء بالقوة إلى العالم: فجدِّي فرَّ يوم فرحه من العروس، ودلهم أصحابه على مكانه، كان يشرب مع بنت ليلٍ -والعياذ بالله-، ولا يعبأ بالمنتظرين، كتَّفوهُ وحملوهُ إلى البيت مثل فريد الأطرش، ذهبوا إليه في الصباحية: فوجدوا البنت وحيدةً وتبكي

fb/mashro3pdf

في البيت، والزُّوج خرج منذ الصباح ولم يرجعْ، مر أسبوعٌ وهم يبحثون ويسألون ولا أثر. كان أبوه في غاية الحرج، ولم يُعارضْ عندما أخذ والد جدتي العروس لترجع إلى بيته، يمر شهرٌ وراء شهرٍ والزوج غائبٌ، وأبوه يُطأطئ رأسه في الأرض كلما مر به والد العروس، ويطلب السماح والصبر. بعد شهورٍ عاد، كان مُفْلِسًا، ويطرق باب أبيه ليسأل عن مالٍ، وأبوه يهدر بالغضب ويقول: «أعطيتك وهبة زواجٍ لمصاريف بيتك تُغطِّي شهورًا، فأين راحت؟! وأين كنتَ وتركتَ العروس؟! الناس أكلت وجوهنا يا ابن الكلب!». كان جدي يقف أمام أبيه بدون هَمٍّ، يسمع ولا يُبالي، وأمه تقف جواره تغمره بالقبلات، وفي يدها طبق لحم تُقطِّع منه وتدسُّ في جوفه. أجاب وهو يضحك: «كنتُ أنبسط في الإسكندرية، وصعدتُ على مركبٍ أبحرتْ إلى اليونان». اشترى أبوه أقفالًا ضخمةً، غلَّق النوافذ والباب، أعاد العروس إليه، قال لجدي سآتيك بمستلزمات العيش، ولكن لن تخرج من البيت إلَّا بعد أن تحبل زوجتك وتضع، أغلق عليه الأقفال، يمر عليه كل يومٍ بما يحتاجه البيت، ويقول له: «أنت وشطارتك لو تريد الخروج». أنجب جدي بنتًا وراء ابنٍ، دومًا يتذكَّر أيام الطيران ويتحسَّر، لا يضحك إلَّا بمخالطة الذكرى، ويتناول الفرصة ليمسك بالحكي عن قديمه. يقول لزوجته: «كنتُ خفيفًا كعصفورٍ، ولولا أقفال أبي وعرج بساقي مِن بطنك ما أدمنت القفص». يجرى في الفجاج وراء اللقمة وأبوه يضحك،

fb/mashro3pdf

يُذكِّره بأيام الطيش ويضحك، يُساعده في أحيانٍ، ويتجاهل في الأغلب؛ يقول له سُنَّة الحياة ومطالب الرجولة. طالت الحياة وضرب النسيان أبيه في آخر العمر، كان أبو جدِّي يُتهته ويجد صعوبةً في العثور على كلماته، يأخذ الكلمات مِن فم العابرين ويملأ بها الآذان، يحكي عن نفْس الوقت بحكاياتٍ عديدةٍ ومتضادةٍ؛ يقول كنَّا على باب الله، نقتاتُ على طرح النخل، جئتُ يتيمًا بلا أبٍ، بعدما حبلتْ أُمِّي في عشةٍ جوار النخلات، ومات أبي في سخرة القناة، ويقول نرث البياض والحمرة من البطن الشامية، أنجبني أبي في الشام بعدما تزوَّج من ابنة تاجرٍ كبيرٍ، عمل عند أبيها لسبع سنواتٍ في مُقابل المهر. لكنه وجد روحه في حكايات الولد؛ فامتدَّ لسانه على كلمات ابنه القريبة، يستمع إلى الولد طوال النهار والليل وينزل إلى الشارع؛ فيوزِّع على الناس الحكايات عن شبابه المليء بالمغنيين وجلسات المزاج، ورهان خسره على سيدة إيطالية؛ فنفذ حكم الغالب، وخلع ملابسه في شارع عماد الدين، ومشى عاريًا كالخارج من بطن أمه، وعندما رأت السيدة الإيطالية ذَكَرَهُ الكبير يتدلَّى في وسط الشارع؛ سحبتْ يدها من يد الفائز، ونامت في حضن المغلوب، يحكي عن أسماء الراقصات والشامات المختفية بأثدائهن ومؤخراتهن، عن سفره بطول مصر وعرضها، نومه في الغيطان بين المدن، وأكله من ثمار الشجر عند الجوع، عن عمله بلقمة يومه على ظهر مركبٍ أبحرتْ إلى اليونان، وليس معه سوى علبة

fb/mashro3pdf

سجائر، يخرج الأهل إلى الشبَّاك على صوت الرجل وهو يتلبس نبرات الابن وطريقة تحريك الذراعين ويحكي عن هروبه في يوم فرحه، أصبح الشارع والجيران يُغالطون حكايات جدي؛ يتغامزون، ويقولون ذلك من سيرة أبيك، فاترك للرَّجُل الطيب شيئًا في آخر العمر، كان جدي غاضبًا ويقول «يا أبي، حتَّى حكايتي لم تسلم مِن الأقفال!». أصبح الأب يتوه في الشوارع: حكى في الصباح عن عمله كطبيبٍ في السودان، وقناعة ناس السودان بالشفاء من خلال السِّحر، والأفاعي المنتشرة في موضع الخطوة، ومعالجة الملدوغين، وصعوبة الاحتفاظ بالعقاقيرفي الطقس الحار، خرج من البيت وغاب إلى آخر النهار، والبيت يشتعل قلقًا، عاد به طبيب المستشفى بعد أن دهس أهل البيت كل موضع بحثًا عنه، ضحك الطبيب وقال: «الشيخ يُريد أن يُعالج الناس». أحضر جدي أقفالًا هو الآخر، كان يضحك، يغلق النوافذ والشبابيك على أبيه، يقول للناس: «لكي نحفظه من الجري وراء غواية الحكايات في رأسه». كانت ثناء تحكي وتضحك، تتأبَّط ذراعي، وتشتري لنا آيس كريم وتقول: «أمك كانت أجمل واحدة، لولا الزمن يا يوسف»، تحكي لي عن زواجها من المدهش، والخُطَّاب الذين وقفوا طابورًا أمام بيت أبيها، ولكنه النصيب والإعجاب من أول نظرة. في طريق العودة نمر على قهوة سعادة: فتدسُّ جنيهاتٍ في يدي، وتقول: اجلس قليلًا، وروِّح عن نفسك يا حبيبي. كنتُ أجلس ولا أشعر بما

fb/mashro3pdf

حولي، يأتون بما يأتون به فأشرب ولا أتذوق، لا أحد أعرفه، ولا أحد يُكلِّمني وأُكلِّمه، وحتى ابن صابر الذي كنتُ كذيلِهِ في يومٍ ما، مات واستراح. أبلة نوال تتجنبني في المصادفات، أقول لها: صباح الخير، فتُشيح بوجهها عني، والشيخ حسين يتجهَّم في وجهي، ويردُّ السلام بصعوبةٍ منذ ذهابي لحلَّاقٍ آخر، كأني بخروجي ضربتُ عيالَهُ بالجوع. جلستي على القهوة صارت لمراقبة الناس والعصافير وغيوم السماء، حفظتُ ملابس أهل الحارة، وصرتُ أعرف ما يرتديه الواحد منهم قبل أن يطلع من بيته، أعرف من خطوة الواحد وملبسه إلى أين يذهب ومَن يقابل، أحفظ مواعيدهم والطقوس الملازمة، أعرف حالهم وما يأكلون وأمراضهم مِن أكياسٍ يحلمونها في الدخول، تكبر أُذُني؛ وأسمع وشوشاتهم خلف الجدران، أعرف أمزجة البيوت، وما تُخفي من حبال المحبة وجدران الرفض، لا جدران تفصلني عن الخلق، لا جدران عصيَّة أمامي، العريُ مقيمٌ يا أوساخ. في كل يومٍ بعد صلاة العصر تعبر أمامي إيناس بنت الشيخ حسين، تُمسك في يدها بكيس أسود مليء بطعام، وتذهب بالغذاء إلى محل أبيها، وهي تتعثَّر في سوادٍ مُطلقٍ، أصبح الخفي خيالًا في الغُرفة، أحاول استنباط جسد البنت، أتفحَّصُهُ بعيني أثناء الذهاب والمجيء، ثُمَّ أُحاول انتزاع الملابس عن اللحم انتقامًا من الشرموط أبيها؛ وأستمني. ألتقط صورًا لها بالمحمول، أقوم بتكبير الصور على الكمبيوتر، وأفرز جسمها قطعةً قطعةً

fb/mashro3pdf

للوصول إلى حقيقةٍ، أجد جسمها يُشبه جسم سلمى بشكلٍ كبيرٍ، أتفحَّص وأجد خطوتها كذلك، للبنت مشية سلمى وحركات سلمى، عندما تتكلم بهمساتٍ وهي تُناول حسين الكيس أمام باب المحل كنتُ أسمع صوت سلمى، أُذُني تنمو وأسمع حسين يقول: «يا سلمى!». صحوتُ مفزوعًا في ليلةٍ، ممتلئًا بالعرق، كنتُ أصرخُ مضروبًا بالنتائج التي غابتْ عن عقلي: هذه البنت هي سلمى والله، الشيخ حسين تعمَّد إهانة كرامتي أثناء وجودها في الشارع ليأخذها إلى بيته، الشيخ حسين متواطئٌ مع نوال التي سلَّمَتْهُ سلمى بحيلة النساء. حبيبتي مختفيةٌ عني في بيت الشيخ (أحَّه) المتزوِّج مِن ثلاثٍ، تمرُّ أمام عيني كل يومٍ في ملابس سوداء وغطاءٍ على الوجه؛ فيزداد ضحك أولاد القحبة على محنتي، لم أنتظرْ أكثر من ذلك لكشف تلاعبهم بي. في اليوم التالي، كانت تعبر أمام القهوة، فناديتُ بصوتٍ عالٍ: «يا سلمى»: التفتت البنت تجاهي، ثُمَّ استدارت مرتبكةً، وأسرعت الخُطى تتعثَّر باتجاه المحل: تأكَّدتُ مِن شكوكي تمامًا، قطعتُ المسافة بيني وبينها قفزًا، سددتُ الطريق عليها ونزعتُ القماش عن الوجه، تفاجأتُ؛ قلتُ: مدة بسيطة في بيت حسين تُغيِّر ملامحك هكذا يا سلمى؟! كانت تصيحُ مفزوعةً، تُعيد الغطاء لوجهها، بنت القحبة تحبُّ الأسر، وحسين يضربني على ظهري ويُزيحني من الطريق، والناس من حولنا، شدَّني المدهش من يدي نحو البيت، وقفتُ رافضًا الذهاب، أصرخُ فيه: «والله أنت تعرف

fb/mashro3pdf

وتعرِّص على صاحبك»، أقنعتني ثناء أنَّ البنت ليست سلمى. قالت: «لا تُصدِّقْ أبيك. لكن صدِّقْ أُمَّك حبيبتك». أعطتْني ثناء مئة جنيهٍ، وقالتْ: «لا تجلس في الحارة، اذهبْ للتمشية على النيل ليروق فكرك». كنتُ أخرج من الفجر، أمشى في شوارع وسط البلد بلا هدفٍ، رأيتُ سلمى مرَّاتٍ كثيرةً ولم ألحقها، وفي مرَّاتٍ أُخرى كنتُ أُمسك بها؛ فأجد واحدةً أُخرى بين يدي، لكني عرفتُ هناء في ذلك الوقت؛ كانت تسير في طلعت حرب، تُلامس الأرض بخفةٍ كأنها تطيرُ، يسبح شَعرها مع الهواء، وذراعاها كالأجنحة؛ كدت أُناديها: «يا سلمى»، ولكني تذكرتُ أنَّ سلمى مع الطبيب، تتبعتُها حتَّى بيتها، أنتظرُ أمام البيت بالساعات حتَّى تظهر، وأظلُّ خلفها في المشاوير، أمشي معها إلى محل عملها، وأُلازمها في طريق العودة، أُسجِّل المواعيد بحرصٍ، ألتقط الصور: أطبع وأُعلِّق في غرفتي، أحتفظُ بواحدةٍ في المحفظة، تعلَّقتُ بالبنت وتقاسمتُ معها العيشة، تأتي ليلًا إلى سريري لمؤانسة المحنة، أصبحت هناء حبيبةً في ذلك الوقت الذي عز فيه الأحبة، كانت كزوجةٍ؛ تعتني بملابسي وطعامي، تظهر أمامي في البيت وتضحك، تتعرَّى مِن ملابسها قطعةً قطعةً، تنظر وتضحك، تسحبني إلى الكنبة وتقول: لا أرتاح إلَّا وأنت فوقي، تهتزُّ تحتي مِن لذةٍ وتضحك، تجلس معي إلى المائدة، ولا آكل إلَّا حين تأكل معي. كنتُ أسأل بحرصٍ؛ عرفتُ اسمها وعملها وأصولها مِن سؤال الجيران، وأصحاب المحلات المجاورة للبيت.

fb/mashro3pdf

والجالسين في المقهى المجاور للبيت، والمُصلِّين في المسجد القريب من البيت، وزملاء العمل، أجمع قطع البازل وأدوِّنُها بعنايةٍ في سبيل معرفةٍ كاملةٍ. كانت الأمور سلسةً فيما يتعلَّق بجمع المعلومات عنها بخلاف البنت أمنية المنحوسة؛ والتي ما إن سألتُ صاحب محل البن جوار منزلها، حتَّى انفرجتْ أساريرُهُ، وأمسكني مِن ذراعي بودٍّ، قال: «طالما تُريد الحلال يا ابني، تعال، ونتشرف بزيارتك في البيت، تعرفنا ونعرفك، وبعدها اسأل واطمئن كما تحب، أنا خالها والبنت والله من بيت أصول». قلت «والله ليس لي يا حاج، أنا في خدمةٍ لصديقٍ أعطاني العنوان، وقال اسأل. أمانة، وأنا أدَّيتُ ما عليَّ وابنتكم جوهرةٌ، وعن قريبٍ تتلاقى الوجوه إن شاء الله». انقطعتْ بعدها علاقتي بالبنت رغم جمالها، لكن قريبها هو السبب، وليس بيدي حيلة يا بنت، ولا تهمني النساء؛ فأنا معجباني مثل بذوري. لم تطلْ علاقتي بهناء والسبب أنيسة. كانت أنيسة تمرُّ أمامي أثناء انتظاري لهناء، كنتُ أجلس على الرصيف المواجِه لمدخل الشركة التي تعمل بها هناء، خرجتْ هناء ويدها في كف الولد الذي يظهر معها مُؤخَّرًا، يدورون أمامي بالساعات في شوارع، يذهب معها حتَّى باب البيت، ويُقبِّل يدها قبل أن تغيب. كنتُ أصبر وأحسبه أخاها أو قريبًا يطمئنُّ على وصولها، لكن ما إن رأيتُ أنيسة أمامي، حتَّى قلتُ فورًا تحلُّ أنيسة في قلبي، ولتشبع هناء بالأهبل. أنيسة يا مرَّ رُوحي وحلاوتها! بكِ أحيا، وبكِ أموت،

fb/mashro3pdf

وبكِ أُقيم، وبكِ أبارح. احتلت أنيسة مكان هناء، نسيتُ الأُخرى تمامًا، ونسيتُ الوجع. كنتُ أكثر خبرةً وحساسيةً عند السؤال، وبتمرُّس وبحرص المحبة الغالية عرفتُ ما أريد. الأب أحمد فؤاد كان ضابطًا في الجيش، تُوفِّي في حادث سيرٍ؛ صدمته سيَّارةٌ وهو يعبر أمام المنزل، وتركتْهُ في دَمِهِ. فترك خلفه بنتًا وحيدةً وزوجةً صغيرةً تحمل شهادةً جامعيةً. فضَّلَت الأُمُّ أن تظلَّ في المنزل، ترعى البنت وتعيش على معاش الزوج ومساعدات العمَّين. ربَّت الأم ابنتها وتحمَّلت الحياة دون زوجٍ، إلى أن تخرَّجَت البنت في كلية الهندسة جامعة القاهرة. والبنتُ تعمل مهندسةً معماريةً في مكتبٍ هندسيٍّ في وسط البلد، سيرتها طيبةٌ ولم تدخلْ في علاقة؛ قالوا إنها مثل أبيها موهوبةٌ للدراسة والعمل، ورفضت الطالبين بحجة الدراسة وإثبات الذات. تحب أنيسة درجات الأزرق والرمادي، ملابسها تتأرجح بين اللونين، قال لي عامل البوفية إنها تفتتح يومها بقهوةٍ سادةٍ بالرغم مِن مُعاناة القولون، كما تشرب الشاي دون سُكَّرٍ. تُدخِّنُ قليلًا في البيت: تشتري علبة سجائر واحدة (ميريت أصفر) كل أسبوعٍ أو أكثر، ولا تُدخِّن أمام عيني أو في العمل، وتحتفظُ بقدَّاحةٍ وقعتْ مِن حقيبتها ذات مَرَّةٍ. تسمع فيروز أو عبد الوهاب طوال وجودها في المكتب. بينما أخبرني بائع الخبز أنَّ والدتها تحب الست والشيخ عبد الباسط، وأنَّ الأم تأكل الخبز وحدها، بينما أنيسة تأكل الأرز أو المكرونة فقط كما قالت له الأم. كدتُ أهلك مِن الفرحة

fb/mashro3pdf

حينما أعطاني صبي المغسلة ملابسها المتسخة مقابل عشرين جنيهًا. كنتُ أنتظرُهُ أسفل منزلها ولا أُصدِّق أنَّ الأمر سيكتمل كما أحلم. تشمَّمتُ ووصلتُ لرائحة الجسم. كنتُ أدسُّ وجهي طوال الليل في الثياب. واشتريتُ زجاجةً مِن عطر أنيسة بعد أن أخذتُ البلوزة لمحل عطورٍ، وأدخلتُ البائع في وصلة شمٍّ عميقةٍ أصابتني بالغيرة. اشتريتُ العطر، ووضعتُ منه على الوسادة في كل ليلةٍ؛ لتظلي هنا يا أنيسة. كنتُ أتتبع، أراقب، أجمع التفاصيل، وأحفظ عن ظهر قلبٍ تحت سيف جمالها الضارب في الروح. تختفي هناء من بيتي، وتتجول أنيسة، لكن أنيسة لا تتعرّى أمام الكنبة. أنيسة تجلس جواري، وتلمس يدي، فتنتصب روحي والله. أصبحتْ صورها على الجدران، وثناء تسألني وتضحك، تدعو لي برائق البال؛ وجهها للأعلى بملامح رجاء محترق، ويداها تهتزان كأنها تطرق الهواء حولها للإجابة، تشبُّ على أطراف أقدامها، حتى قلتُ ثناء ستصعد للسماء وهي تدعو. تنهر المدهش وتصرخ: «اتركه في حاله يا حاج، أبوس إيدك؛ ماصدقنا يخرج للشارع». كنتُ أُكلِّم أنيسة وهي تُعِدُّ العشاء لنا، أتصيَّدُها وهي تستحمُّ لأتعرّى بين ذراعيها تحت قطرات الماء. تطبع على خدي قُبلةً يوميةً أمام مقر عملها، وتسألني متي أعود لمرافقتها إلى البيت. تسهر في غرفتي أمام اللوحات، ترتدي ملابسي وتستكمل الرسومات الهندسية الخاصة بالمكتب الذي تعمل به، بينما أُحْضِر كوبَي شايٍ دون

fb/mashro3pdf

سُكَّرٍ كما تُحِبُّ. أجلس على طرف السرير، أُراقب يدها التي تخطُّ، وأقول: أنا لوحةٌ، فاكتبي على جسمي يا بنت الجميلة. لا أحتاج أن أدوِّن تفاصيلها للتذكُّر كما فعلتُ مع هناء؛ فكل شيءٍ محفورٌ في رأسي. كانت أُنسي والحبيبة التي أردتُها للمحبة. لكنها غابتْ فجأةً، لم تَعُدْ تذهب للعمل، وطوال أسبوعٍ لم تظهرْ خارج البيت، كنتُ أُجَنُّ، قلتُ: تزوَّجَتْ مِن وراء ظهري، أبكي وأقول أخذوها إلى السعودية. أظلُّ أمام بيتها طوال النهار والليل، وأنام أحيانًا على الرَّصيف، ولا أثر. ظهرتْ فجأةً في عصر يومٍ، كانت تمسك بيد أمها وتبدو منهكةً، استقلَّتا تاكسي، ورحتُ وراءهما، ذهبتا إلى عيادة طبيب مُخٍّ وأعصابٍ في الفلكي، ثُمَّ مركز أشعة في عمارةٍ مقابلةٍ للطبيب، وعادتا بعدها إلى البيت. لم تكن أنيسة التي أعرف؛ كانت ذابلةً وتائهةً، تخطو بصعوبةٍ، كنتُ أُجنُّ مِن الخوف، وأُريد أن أعرف. ذهبتُ في الصباح إلى العيادة، كانت مغلقةً، وانتظرتُ على السُّلَّم حتَّى أتتْ مُساعِدة الطبيب، ذكرتُ اسمها وأوصافها، سألتُ عن حالتها ومرضها، أعطيتُها عشرين جنيهًا، قلتُ: «رشَّحها لي قريبٌ للزواج، وأُريد أن أطمئنَّ قبل دخول البيت». كانت تضحك بخبثٍ، قالت: «مسكينة؛ يقول الدكتور إنها أخذت دواءً بالخطأ، ولا تتذكَّر أيَّ شيءٍ، رأسُها كالصفحة البيضاء». لعبت الكلمات برأسي، النسيان جميلٌ. كانت فرصةً تحتاج للجرأة يا يوسف. ولكن البنت تستحقُّ المغامرة. كنتُ أُعِدُّ التَّفاصيل اللازمة بحرصٍ،

fb/mashro3pdf

أدوِّن ما سأقول ومتى. أنتظرُ البنت التي لا تخرج إلَّا في يد الأم. صرتُ أتتبعهم في الزيارات إلى المستشفيات والمعامل في انتظار لحظة انفرادٍ بالبنت. تركتها الأم في صالة الانتظار وذهبتْ إلى دورة المياه. كنتُ أقترب لأوَّل مَرَّةٍ من أنيسة. قلبي يدقُّ وكالمحموم. لكني كغيري لأوَّل مَرَّةٍ أمام أنثى. كانت تنظر في عيني بحيرةٍ. مظاريف مِن الأشعة والتقارير الطبية فوق ركبتيها. كنتُ أدسُّ في يدها ورقةً مطويةً. قلتُ: «اقرأيها وكلميني. ولا تدعي أحدًا يراها وسوف تفهمي». كانت الورقة تحكي عن تفاصيل محبتنا. بدايات التَّعارف. قُبلتها اليومية. أملنا في الزواج. عذابات النسيان وافتقادي لها تحت وطأة المرض. رقم تليفوني مع اقتراحٍ بموعدٍ قد يُنعش الذَّاكرة. ولكني لم أذكر زيارتها لغرفة نومي ولا تجولها عاريةً في بيتي. كلمتْني أنيسة في الليل. لاسمي منتهى الحلاوة حينما تقول «يا يوسف». التقينا. نمضي متشابكي الأيدي في الشوارع أمام الأعين. نمشي وتسأل وأحكي: «أنتِ تشربين الشاي دون سُكَّرٍ. تمدين يدك بالكوب. تقولين لي تنفَّس في الكوب فقط قبل أن أشرب. وتقولين نَفَسك يحلِّي العيشة وليس الشاي». أقف وأشتري لها علبة سجائر. أقول: «هل لا تزال الولَّاعة الزرقاء تعمل؟». تضحك أنيسة. وروحي معها والله. أشتري زجاجة عطرٍ. وحذاءً أحمر جديدًا بدل الذي انكسر كعبُهُ وأنتِ تنزلين سلالم المكتب. «هنا قبلتيني لأوَّل مَرَّةٍ. وقلتِ إنك لا تأكلين الخبز. لكن يمكن أن تأكليني». أحملها أمام

fb/mashro3pdf

النَّاس، وأعبر الطرق السريعة بين العربات، الناس تضحك، وأنيسة تضحك في صدري، وأنا أصيح: «سأظلُّ أحملك حتَّى لا تخافي مِن العربات». أضخُّ الذِّكريات وأدوِّن التفاصيل مخافة النسيان والخطأ. قلتُ اصطنعتُكِ لنفْسي، والله يا أنيسة أنت بأمي وأبي وعيني. كانت حالتها تتحسن؛ فأفرح وأخاف، يزول الذبول والنظرة التائهة؛ فأفرح بقرب الشفاء وأخاف منه يا بنت. ارتدتْ حجابًا ولم أعترضْ على حرماني مِنْ رؤية شَعرها، قالت لمزيد من الدعم النفْسي. أحكي وتعيدُ تمثيل ما أحكي في محاولةٍ لإنعاش الذاكرة، تمثِّل التفاصيل من جديدٍ، وتبثُّ كلماتي للحياة؛ تُجسِّدُ الإيماءات وطريقة الكلام، الانفعالات والضحك تُعيدهم حسب وصفي، وتسأل عن صحة أفعالها في ذاكرتي، ترتدي ملابسها المفضلة حسب حكايتي، وتأكل الطعام الذي أكلَتْهُ في الحكايات. صارت لنا ذاكرةٌ واحدةٌ، أحكي وهي تفعل، تتشبَّث بالذاكرة من خلالي. قالتْ: «المحبة تقتل النسيان»؛ وحكتْ عن تذكرها لشرب الشاي في كوبٍ زجاجيٍّ صغيرٍ في المنزل تحتفظ به منذ أيام الدراسة الجامعية، وفرحة الأم ببشائر الشفاء. دقَّ الخطر نافوخي، فكرتُ في الانسحاب من عالمها، لكني بدأتُ في الاطمئنان من جديدٍ، حينما عادت لعينيها النظرة التائهة. في آخر مَرَّةٍ أتتْ ساكتةً وحزينةً، حاولتُ أن أعرف، نظرتْ لي بمحبةٍ لا صفة لها في الأرض، وقفتْ بمواجهتي وأسندتْ يديها على كتفي، اقتربتْ بوجهها من وجهي وقبَّلتني بين

fb/mashro3pdf

عينَيَّ، همستْ بضعفٍ: «لماذا تأتي المحبة متأخرةً يا مدهش. أنا لستُ فاقدةً للذكريات يا مدهش، ولو أني كنتُ أرغب في ذلك. أنا أعرفُكَ منذ مراقبتك لي يا مدهش. أراك تمشي ورائي بالأيام والليالي، وأستغرب لما عرفته يا مدهش. أنا آسفة والله وأحبك. أنا مريضة بسرطان في المخ يا حبيبي». مضتْ، تركتني في الشارع وحدي، وماتت ليلتها.

***

دخلتُ إلى دُكَّان أبو عبده، استلقيتُ ونمتُ بسرعةٍ، ضربتْني أحلامٌ كثيفةٌ: عفاف غضبانةٌ وتسأل أسيادها عن مكاني، تتوعَّد وتحلف أن تتركني عريانًا في الشارع. كانت ملابسي تقع مَرَّةً واحدةً في عرض الطريق، كنتُ عاريًا أجري وراء القطار وألوّح للأحباب. أنيسة تخرج لي برأسها والذراع مِن شبَّاك القطار، تضحك وتحاول أن تلوّح لي: فتصطدم مُؤخِّرة رأسها بعمود إنارةٍ وتنفجر، الناس يضحكون ويشيرون إلى ذَكَري العاري، والنمل يخرج من جديدٍ ويندفع نحو الناس. تقف نملةٌ في عرض الطريق وتشيرُ إلى العري، قالت للناس: «هو ذا الإنسان.. بلا سترٍ كواحدٍ منَّا»، تصيح على إخوتها: «اخرجوا حتى لا يغرقكم باللبن». كنتُ أرى شقوق الأرض تبتلع أبي وأمي وأنيسة وتنغلق، ثم تلفظ أحجارًا بيضاء تجري وراء رأسي، كانت العيال تُمسك أحجارًا وتضرب رأسي، يصيحون: «المجنون..

fb/mashro3pdf

المجنون»، رأسي تنفصل عن الرقبة، هاربة وتجري، والأحجار وراءها، والعيال في الشوارع يمسكون الرأس، يثبتون الرأس في الأرض ويتناوبون ركلها، يلعبون الكرة حتى أصابني الصداع. كان أحدهم يُدحرج رأسي بين قدميه، يُطوّحها إلى الأمام ويلحق بها، قلتُ له: «اتركني جوار الحائط قليلًا لأرتاح»، انحنى وأمسك الرأس بين يديه، قال: «نحن نلعب يا جدي». كان الولد يتضخَّم، يتحوَّل إلى فارسٍ على حصانٍ أسود بلا سرجٍ أو لجامٍ، قال: «أمتعني اللعب برأسك، وسوف نعوّضك ونبدلك رأسًا خيرًا منها.. نلبسك سوار كسرى، ونُعطيك مفاتيح فارس». كنتُ عطشانًا، وصحوتُ على صوت بكاءٍ مُتقطِّعٍ، أنينٌ كبنت موسى حينما تدخل إلى الشقوق؛ فزعتُ، ولكني رأيتُ أبو عبده نائمًا جواري، مِن التعب لم أشعر بفتح باب الدُّكَّان ولم أشعر بدخوله، قلت: «مالك؟»، رد بضيقٍ: «اتركني في حالي»، أكمل البكاء، توقَّف، وقال: «أفسخ قليلًا؛ لأنام جوارك». نام الرجل وهو يبكي، وذهبتُ في النوم. في الصباح حاولتُ إيقاظَهُ، كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ ويبدو متعبًا، تركته نائمًا، وخرجت إلى الشارع.

***

أتتْ عفاف ووالداها إلى عزاء المدهش، لم تفارقني، مكان ما أروح تكون ورائي، ظلَّتْ تواسي، تزور لتطمئن، مكالمات لا تنقطع لتطمئن، إلحاح في زيارتهم للغذاء، أو ترسل أمها بالطعام إلي،

fb/mashro3pdf

كانت الصدر الحنون في عز المصيبة، لم آخذ وقتًا طويلًا حتَّى استسلمتُ ليدها بعد حصار الاطمئنان، نصَّب موسى نفسَهُ وليًّا لأمري؛ قال: أنت مثل ابني خالد، وما تأمر به سوف أُنفِّذُهُ دون نقاشٍ، لست وحدك، ونحن أهلك يا يوسف. قص موسى ريشي بنعومةٍ، أخذ على عاتقه ترتيب بيت الزواج، قال: «أن تكونوا جوارنا في المنطقة أفضل لتصير لك عزوة، يمكنك تأجير بيت أبيك، ونستأجر لك شقة قرب بيتنا». أصرخ فيها، وأقول: «أخرجني أبوك مِن وسط ناسي لتنفردي بي»، وتحلف عفاف: «أنت مَن بكيتَ، وقلتَ ساعدوني، إنها حارة سوءٍ». حدَّد موسى مُؤخَّرًا يُبدِّد أي محاولةٍ للهروب: «البنت لا زالت تتذكَّر هجرَكَ لها في يومٍ وليلةٍ يا يوسف. شيءٌ للاطمئنان فقط، ولن نتكلَّم فيه إن شاء الله. نحن زواجنا زواج نصارى. هو نفْس المُؤخَّر الذي ارتضيته لزوجة ابني خالد. أنت تعرف أنَّنا لا نستحلُّ الحرام، ولا فلوس الناس منذ المرة السابقة». اشترى لي بدلة الفرح على حسابه، وأقام الفرح على سطح داره دون أغنياتٍ أو أضواءٍ، ووسط دائرةٍ محدودةٍ مِن المعارف؛ مراعاةً للظروف. حبلت القحبة في أوَّل شهرٍ لتضمن ربطي جوارها، كان ذَكَري يرفض الولوج مِن أول ليلة، يُريد الحرية لكنها حبلتْ، ضربتني بالنمل وحبلتْ، أثقلتْ كتفي بالمعيشة والطلبات وظلتْ في البيت تضحك، أدور في عز الشمس، أتقلَّب في نار الطلبات وحاجات البيت، أنسى المدهش المعجباني والحر، لا أجد وقتًا ولا جهدًا

fb/mashro3pdf

لروحي، تقول: «لماذا تريد أن تذهب إلى القهوة، ليس لك أحد يا يوسف تأتنس به غيري، كن جواري». توقظني من عز النوم لتربط في يدي حبلًا وتقول: «نُريد أن نتفسَّح ونشمَّ الهواء»، أنهض مترنحًا، ظهري مملوءٌ بالشمس مِن السكك، وعيني عمياء بالأوراق التي التهمتها في العمل طوال الأسبوع، وأقول في سري: «أنا أيضًا أريد أن أشمَّ هواءً بعيدًا عن عفنكم الملازم». تضع في يدي ورقةً وتقول: «طلبات البيت»، وتضع في يدي الأُخرى أكياس القمامة، تضع في يدي البنت سلمى، وفي يدي الأُخرى أكياس الفاكهة لزيارة أمها. تضع في يدي أدوية البنت، وفي يدي الأُخرى تتعلَّق؛ بنت القحبة مهووسةٌ بانشغال يديَّ، يركبها القهر لو رأت يدي حُرَّةً. ابنتها تعوي بالجوع، ولا تشبع كأنَّ بنت الكلب برميلٌ مخرومٌ: تتعلَّق بالليل والنهار في حلمة عفاف، وتمصٌّ كأنَّ القطار يجري وراءها، وما إن أقتنص وقتًا لا تأكل فيه، وألمس ثدي عفاف، حتَّى تفرَّ بصدرها مِن يدي وتقول: «يُؤلمني مِن الرضاعة طوال اليوم يا يوسف، فلا تلسمه». خسرتُ عملي: قالوا تحرشتَ بزميلتِكَ وأنت موقوفٌ عن العمل، قالوا غازلتَ البنت، وسكتتْ لكن يديك طالت، عبرتْ مكتبها، وأمسكتَ بثديها، والنَّاس شهدتْ مع البنت على فعلتِكَ، أقول: البنت كانت معجبةً بالمعجباني يا أولاد القحبة. فقَّاعة عفاف تجعلها لا ترى محاولاتي للصيد، تنظرُ إلى خاتم الزَّواج في يدي وتتحسَّر على المدهش المربوط جوار عفاف، وتختار للمحبة الولد الخول

fb/mashro3pdf

في المكتب؛ لكونه دون خاتمٍ في يده. عفاف تنشر الفقّاعات بخاتم زواجٍ ومُؤخَّرٍ، والمدير يقول: «لو عرفت زوجتك بما فعلتَ ستغضب، لوالد زوجتك أصدقاء في الشركة». تحرق عفاف صندوق ذكرياتي وصور الحبيبات، وتقول «الغيرة». تُريد محو الماضي حتَّى تهدأ. يا بنت القحبة، لم ألمس واحدةً فيهنَّ، سوى أنيسة، لكنها حكاياتي وعمري. طلبات لا تنتهي، وإيجار الشقق في منزل أبي لا يكفي للمعيشة، وهي تُحاصرني بالبكاء، النمل يضربني بالليل فتنهض مِن جواري وتبكي، أقول «يا بنت الكلب، لو سمعت صوتك سأذبحك، أريد أن أنام»، تدخل الحمَّام، أو تختبئ خلف الكنب وتبكي، ينغلق نور الغرفة؛ فتبكي، تدخل إلى المطبخ لتغسل الأواني وتبكي، أسمع أنينًا مكتومًا لتسودَّ العيشة. تُضاجع أسيادها وتحبل مِن جديد وأنا مملوءٌ بالنمل، أقول لها كيف يا بنت الحرام! أمسك سلمى، وأقول لها أرجعيها إلى المكان الذي أتيتِ بها منه، تبكي؛ وأمسك بنت الحرام الصغيرة، وأقول لها أدخليها في كُسِّك، أحشر رأس البنت في مهبل عفاف لترجع من مطرح ما جاءت، وموسى يقول لي سنأخذ البنت حتَّى لا ترهقكم المصاريف، وحتى تتحسَّن الأحوال، يمنُّ عليَّ ابن القحبة هو الآخر. تحبل بنته في الحرام، ويُريد أن يلمَّ الفضيحة، ويضحك عليَّ. ليس هناك ما يشغل وقتي بعد ذهاب سلوى، ولا أجد في المحبة أحدًا، أذهبُ مِن جديد إلى المطارات، وأُشير للمغادرين والواصلين وأبكي، كما فعلتُ بعد موت المدهش

fb/mashro3pdf

في الوردة مِن حلاوة. قلتُ: «كنتُ أُخرج نارًا سآتيكم منها»، أكملوا ضربي حتَّى نزفتُ نملًا كثيفًا. يخرج النمل فيسدُّ الرؤية والسمع؛ أقول: «وجعلتم لي السمع والبصر لتذهبوا به وقت الحاجة؛ فما أنا بقارئٍ»، قال أحدهم: «نُريده أن يُعيد تمثيل الحادثة». نظر لي صاحب النسر بتعاسةٍ وبلا أملٍ، كان يخرج النسور من كتفيه ويطلقها على العصافير مِن حولي؛ فتأكل أجنحتها وتقع العصافير، أجسامها تهتزُّ. تكمل محاولات التحليق ولا تصدِّق زوال الجناح، قلتُ: «يأتي الملوك ليصلحوها». كنتُ مهانًا وأصيح على الملوك في الغُرفة، رأيت بقعًا متفرِّقةً في أنحاء الغرفة، والكلاب تتشمَّم وتتناولها بالأيدي في أكياسٍ، يلتقطون مِن فوق فراشي ومِن بيتي ومِن هواء الغرفة؛ ويضعون في الأكياس، ينزعون ملابسي؛ فأصير عريانًا، ويملؤون الأكياس، كانت حياتي تدخل إلى الأكياس في أيديهم، وأنا لا أقدر أن أتفوَّه، وقعتُ جوار السرير، رأيتُ الشمس حارقةً فوق رأسي، والدُّنيا كغمامةٍ كبيرةٍ في عيني، رأيتُ ثناء تحمل أطباقًا وتقول: «الفطور لأجمل حبيبٍ». تُملِّسُ على شَعري، تأخذ رأسي بين ذراعيها وتقول: «يا يوسف، اخرجْ مِن الغرفة يا حبيبي وتبرَّز في الحمَّام، إذا كنتَ لا تُريد رؤيتنا، اطرق الباب قبل خروجِكَ، وسنحبس أنفسنا أنا وأبوك في الغُرفة. يا حبيبي، انقصم ظهري مِن تنظيف الكُتل في الزوايا والرائحة لا تزول، وتترك بقعًا في غرفتِكَ، وأنت كبيرٌ». رأيتُ المدهش يُصلِّي ويقول: «يا ملك

fb/mashro3pdf

الزمان، أعطنا وقتًا للإصلاح، ولاتخزني في أملي». رأيتُ الشيخ حسين يقف بالمقص. ينفتحُ المقص وينغلقُ بين أصابعه، يُقطِع به الهواء بضرباتٍ سريعةٍ، يُشير إلى ذَكَري بالمقص ويضحكُ. رأيتُ ابن صابر ينظر بعتابٍ، ويُشير على علاماتٍ في وجهه؛ فأبكي، ويدي تنفصلُ عنِّي، تفرُّ وترفعُ سمَّاعة التليفون، أُحاولُ اللِّحاق بيدي لأمسكها، أحاول وضع السمَّاعة، فيهرب لساني أيضًا، يلتصق بالسمَّاعة، يُكلِّم زوج بدرية ويقول: «امرأتُكَ يركبها عيل يا سبع». رأيتُ أبلة نوال تقف أمامي في طابور العيش، تمدُّ يدها وتقرصُ ذَكَري في وسط الخلق، تضحك وتقول: «لا زال لا يعمل يا يوسف»، بينما أمسك يدها، وأُقبِّلُها قُبلة رجاء طويلةً، أُسقط الفلوس تحت قدميها وأنزل لأتناولها، ألتقطُ حفنةً مِن ترابٍ وطئها نعلُها، وأرفع التراب إلى شفتي، أبوس تراب موضعها أمام أعينها الراضية، وأقول «اقرصيه يا أبلة، اطحنيه بالأصابع لعله يعمل». رأيتُ جارةً تُوصي أمي: «ألبسيه ثياب البنات، واربطي شَعره، الولد حلو ما شاء الله، وحيد ومعرَّض للحسد، مَن سمَّاه يوسف لم يُخطئ، لكن ناديه باسم بنتٍ أمام الناس». رأيتُ حبيبتي سلمى تأتي، تظهر وراءها عفاف، تقفان وتنظران، تُعِدُّ سلمى حقيبة سفر وتضحك، تتنهَّدُ، تقول: «أخيرًا.. أتخلَّص مِن الضيق، وأذهب بعيدًا إلى الوسع». تقفُ وراءها عفاف، تضع يدها بين فخذيها، تمسك عانتها وتتألَّم، تهمس بعتابٍ: «المهم رضاك يا يوسف، ولو قطَّعوا مِن لحمي في ليلة الدخلة».

fb/mashro3pdf

ثناء تقف جوار أم خالد، توشوش في أُذُنها، تجيء ثناء نحوي وتهمس باستنكارٍ: «البنت غير مختونةٍ، يجب الختان قبل الزواج، وإلَّا كل شيءٍ قسمة ونصيب». تهرع سلمى ابنتي إلى الغُرفة، وفي يديها كراسة وألوان، تقف سلمى الصغيرة أمام عفاف، تُشير على عانة عفاف، وتسألني بالعين التائهة، تنزع لباس عفاف: فيتبدَّى كُسُّها أمامي، وتُدخل سلمى لعبها واحدةً بعد واحدةٍ إلى مهبل عفاف، تحشر ملابسها ومشط الشَّعر في المهبل، كرَّاس الرسم والألوان، تحشر الحذاء الأحمر ولوفتها البرتقالية وكوب الشراب البلاستيكي، تحشر أربطة الشَّعر ودواء الحساسية وخافض الحرارة وفرشاة الأسنان، تضع شرائط الأغاني وبرامج الكارتون. كانت بطن عفاف تنمو والبنت تضع الأشياء بحرصٍ، وضعت البنت صورةً كبيرةً تجمعني معها ومع أمها، ثُمَّ وضعتْ رأسها على فتحة المهبل وأشارتْ إليَّ بالوداع، كانت بطن عفاف تسحب البنت وتتحوَّل إلى جبلٍ كبيرٍ وضخمٍ، جبل مرهق ومليء بصخور حادة: توجع بطني كلما جئتها، كنتُ أعتلي عفاف وهي تبكي، النمل يتسرَّبُ مِن عانتها ويضرب ذَكَري ولا أمل، وهي تصرخ: «يكفي: أنا تعبت»، قلتُ: «الكلب يمتعك من الداخل، ولا تُريدين المدهش يا عفاف، الكلب يلعب في كُسِّك يا عفاف وأنت مستكفية، الآن صار المدهش بلا قيمةٍ، بعد أن كنتِ تلعقين تراب قدميه، وتقولين أيام الخطوبة أنا أطير عن الأرض كلما لامستني يا يوسف، أنا أحب رائحتَك

fb/mashro3pdf

وأميزها ولو بين ألف يا يوسف، عيني بالمحبة تراك ولو على البعد يا يوسف، والله ليخرج عشيقك الآن، لا يسدُّ عليَّ طريق الدخول بعد الآن، ولا يُشاركني فيكِ أحدٌ»، كانت تجري في البيت، أجري وراءها وهي تتعثر، تسقط كجمادٍ بلا إرادةٍ، ترتطم بالجدران وتصيحُ، كنتُ أكبّلُ يديها، أسحبها وأربط يدها إلى أعمدة السرير النحاسية، أصعد إلى فوق وأقفز على البطن، كانت تصرخ وتقول: «ارحمني.. أنا حبلى»، كنتُ أصرخ: «لا رحمة اليوم.. صارت حياتي تعبًا بك»، كنتُ أرى العالم محمولًا على زنبركٍ نحاسيٍ، الزنبرك يلتفُّ ويتقدَّم إلى الأمام رويدًا، تكة وراء تكة: والناس يتساقطون، يدهس الحياة بالحياة، وأنا أبكي، أتعلَّق به، وأقول: «قف يا زنبرك التعاسة»، كنتُ أصرخ بينما تجلَّى ملوك الزمان، أشاروا لي بتمام الخدمة، ومنحوني بسمةً واسعةً، تنفلتُ أيديهم الممسكة من فوق الزنبرك ويقولون: «لأجل خاطر الغلبان، كما سهلنا للمعجزات ولرسلنا مِن قبل»؛ فيهوي الزنبرك إلى الخلف بسرعةٍ رهيبةٍ، يُعيدُ إليَّ حياتي؛ فأتناولها بقوةٍ، وأقول للناس: «لستُ أقلَّ مِن معجزةٍ». أطبقتُ على فم عفاف بيدي، كانت أسنانها علاماتٍ تُوجع في الكف، تُريد أن تُفسد الكف؛ كي لا يحمل من الحياة وردةً واحدةً، خيط الدم المنساب يبعث غيظي أكثر؛ أحشر القماش في فمها، أكمل القفز على الجبل المنتفخ، كان صاحب النسور يصرخ مِن جديدٍ: «لماذا قتلتَ زوجتك يا ابن القحبة؟!»، أطلقَ النسور على

fb/mashro3pdf

لحمي مَرَّةً أُخرى، مناقير تنغرس في اللحم والكبد. أخرجتُ الكائن مِن بطنك ولا زال محافظًا على الوصال يا عفاف، إيره يرفض تركك يا بنت الكلب، مُتعلِّقٌ بروحه فيكِ، أربطه في السقف ولا يزال ينيكُكِ. قال صاحب النسور: «ضرب زوجتَهُ الحامل حتَّى الموت، العديد مِن الركلات في بطنها، نزفتْ بغزارةٍ، أجهضها، ربط الجنين بحبلٍ وعلَّقَهُ بالسَّقف في وسط الغرفة».

كانت عفاف تصرخ مِن اللذة، والكتلة الحمراء لا زالت متصلةً بالفرْج، تتبختر في الهواء وأنا مذعورٌ وخائفٌ، كانت أنيسة تقف أمامي، كنتُ أعرف أخيرًا؛ أريد أن أقول للملوك الزمان: أنيسة، أن أصرخ باسمها فقط؛ لكن فمي مُعطَّلٌ بالنمل والدماء، كانت أنيسة تُنادي وتقول: «تعال». تفتح ذراعيها، وفي يدها وردةٌ، كنتُ أقتربُ، آخذ الوردة، أحكُّ ذقني بها..

وأقف وحيدًا كعاشقٍ في تمامِهِ...

-انتهت-

1 مايو 2015

fb/mashro3pdf

خلفي كانت تتفتح الشقوق عن جهنم، وتضرب المواعيد للفزع. وأنا عاشقٌ في تمامه. كانت الأرض تجف؛ المياه تُمتصّ بقوة لا مرئية من الأنهار والبحار والترع، تندفع إلى رحم الغيوم. رأيتُ الطوفان معكوسًا، والفُلكَ ينخلعُ إلى شجر ضخم. رأيتُ الشجر يصير نبتات تغوص في الأرض، والناس يجمعون البذور، ويسيرون بالظهور إلى البيوت. رأيتُ الليل، ثم المغرب يعقبه الضوء، والفجر بداية ليل.

EGP ٢٠

رَوَافِد للنشر والتوزيع

9789777512848

لوحة وتصميم الغلاف: غادة خليفة

fb/mashro3pdf